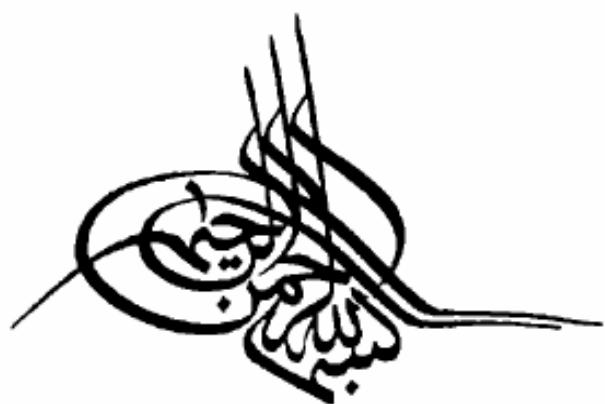


علي حسن مطر

فلسفتنا البسيطة



فلسفتنا الميسّرة



على حسن مطر

فلسفتنا الميسّرة

شابل ٦ - ٩٠ - ٨٤٦٥ - ٩٦٤ ISBN 964 - 8465 - 09 - 6

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

اسم الكتاب: فلسفتنا الميسرة

المؤلف: علي حسن مطر

منشورات: ناظرين

صف الحروف والإخراج الفنى: آمنة علي الهاشمى

تصميم الغلاف: علي الساعدي

المطبعة: ستاره

الطبعة الثانية: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

مُقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآل بيته الطاهرين.

وبعد: فهذه هي الطبعة الثانية لكتاب «فلسفتنا الميسرة» مزيدة ومعدلة.

ويحتوي الكتاب ثمانية عشر بحثاً، تتعلق السبعة الأولى منها بـ(نظرية المعرفة)، ويتعلق الباقي بـ(المفهوم الفلسفي للعالم).

وهي بحوث فلسفية تناسب المبتدئين بدراسة الفلسفة، وقابلة لأن يستوعبها متواسطو الثقافة، وقد انتخبت مادتها من كتاب (فلسفتنا) للسيد الشهيد محمد باقر الصدر رض، باستثناء البحث الأخير، فقد أخذته من كتابه (الرسول والمرسل والرسالة).

أسأل الله أن يتقبل هذا العمل بمنتهى وكرمه، وأن يوصل ثواب الاستفادة من هذا الكتاب إلى روح السيد الشهيد، وأن يتغمده برحمته ورضوانه، ويحشره مع محمد وآلـه الطاهرين،
صلوات الله عليهم أجمعين.

السيد علي حسن مطر الهاشمي

٢٠ جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ

٢٠٠٤ / ٨ / ٨

البحث الأول

المعرفة: حقيقتها ومصدرها

□ تعريف الادراك

إن إدراكتنا لشيء من الأشياء معناه: وجود صورة في ذهمنا لذلك الشيء، فمعارف الإنسان ومدركاته ما هي إلا صور للأشياء منطبعة في ذهنه.

و سنحاول أن نعرف كيف تطبع صور الأشياء في أذهاننا، وما هو مصدر هذه المعلومات التي يزخر بها الذهن الإنساني، والتي نسمّيها (المعرفة).

□ المصدر الأساسي للمعرفة

هناك عدة نظريات في هذا المجال، أهمها النظريات التالية:

أولاً - نظرية الاستذكار الأفلاطونية. وهي ترى: أنَّ الإدراك عملية استذكار للمعلومات السابقة، وقد ابتدع هذه النظرية إفلاطون، الذي كان يعتقد بوجود النفس الإنسانية بصورة مستقلة عن البدن قبل وجوده. ولما كان وجودها متحررًا من المادة وقيودها، أتيح لها الاتصال بالمثل (أي: بالحقائق المجردة عن المادة) وأمكنها العلم بها، وحينما اضطررت إلى الهبوط من عالمها المجرد للاتصال بالبدن، والارتباط به في دنيا المادة، فقدت بسبب ذلك كلَّ ما كانت تعلمه من تلك المثل والحقائق الثابتة، ولكنها تبدأ باستررجاع إدراكاتها عن طريق الإحساس بالمعاني الخاصة والأشياء الجزئية؛ لأنَّ هذه المعاني والأشياء كلُّها انعكاسات لتلك المثل والحقائق الأزلية في عالم المجردات الذي كانت تعيش النفس فيه، وعلى هذا الأساس يكون إدراكنا للإنسان العام مثلاً، أي: لمفهوم الإنسان بصورة كلية، استذكاراً للحقيقة مجردة، كما قد غفلنا عنها، وإنما استذكرناها بسبب الإحساس بهذا الإنسان أو ذاك.

وقد أوضح ناقدو فلسفة إفلاطون:

أولاً: إنَّ النفس في مفهومها الفلسفي المعقول ليست شيئاً موجوداً بصورة مجردة قبل وجود البدن، إنما هي نتاج حركة جوهرية في المادة، تبدأ النفس بها مادياً متوصفة بخصائص المادة، وخاضعة لقوانينها.

البحث الأول - المعرفة: حقيقتها ومصدرها

وتصبح بالحركة والتكامل وجوداً مجرداً عن المادة، لا يتصف بصفاتها، ولا يخضع لقوانينها، وإن كان خاصعاً لقوانين الوجود العامة. وإن هذا هو المفهوم الوحيد الذي يعطي أيضاً معقولاً عن العلاقة القائمة بين النفس والبدن، وأما المفهوم الإلاطوني الذي يفترض للنفس وجوداً سابقاً على البدن، فهو يعجز عن تفسير هذه العلاقة، وعن إيضاح الظروف التي جعلت النفس تهبط من مستواها المجرد إلى المستوى المادي.

وثانياً: أنَّ الإدراك العقلي يمكن إيضاحه مع إبعاد فكرة المثل، بأنَّ المعاني العامة التي يدركها العقل، هي نفسها المعاني المحسوسة، بعد تحريرها عن الخصائص المميزة للأفراد، واستبقاء المعنى المشترك. فليس الإنسان العام الذي ندركه حقيقة مثالية سبق أن شاهدناها في عالم أسمى، بل هو صورة هذا الإنسان أو ذاك، بعد إجراء عملية التجريد عليها، واستخلاص المعنى العام منها.

ثانياً - النظرية الحسية، وممَّن يقول بها جون لووك وجورج باركلي، ويتبنَّاها الماركسيون. وهذه النظرية ترى: إنَّ الحواس الخمس التي يمتلكها الإنسان، هي الوسائل لنقل صور الأشياء، التي أذهاننا، وهي

أشبه بالكامeras التي تلتقط كلّ واحدة منها نوعاً معيناً من الصور.

- فحاسة البصر تنقل الى عقولنا صوراً الأشكال الأشياء.
- وحاسة السمع تنقل صور الأصوات المختلفة.
- وحاسة الذوق تزود الذهن بصور الطعوم على اختلافها.
- وحاسة الشم تزود أذهاننا بصور الروائح.
- وحاسة اللمس تزودنا بتصورات الحرارة والبرودة والنعومة والخشونة وغيرها.

وأصحاب النظرية الحسيّة يعتقدون بأنَّ الحواس الخمس هي المصدر الوحيد للمعارف الإنسانية، وأنَّ كل شيء لا تقع عليه هذه الحواس، لا يمكن أن يدركه الإنسان، أو يأخذ صورة ذهنية عنه.

وليس للذهن بناء على هذه النظرية إلا التصرف في صور المعاني المحسوسة، وذلك بالتركيب والتجزئة، بأن يركب بين تلك الصور، أو يجزئ الواحدة منها، فيتصور جيلاً من ذهب، أو يجزئ الشجرة التي أدركها إلى قطع وأجزاء، أو بالتجريد والتعميم، بأن يفرز خصائص الصورة ويجرّدها عن صفاتها الخاصة؛ ليصوغ منها معنى كلياً، كما إذا تصوّر زيداً، واسقط كلّ ما يمتاز به عن عمرو، فإنَّ الذهن بعملية الطرح هذه، يستبقي معنى مجرداً يصدق على زيد وعمرو معاً.

وترکز النظرية الحسية على التجربة، فقد دللت التجارب العلمية على أنَّ الحسَ هو الأساس الذي تنبثق عنه التصورات البشرية، فمن خُرم لوناً من ألوان الحسَ لا يستطيع أن يتصور المعاني ذات العلاقة بذلك الحسَ الخاصَ.

وهذه التجارب - إذا صحت - إنما تبرهن علمياً على أنَّ الحسَ هو الينبوع الأساسي للتصور، فلو لا الحسَ لما وجد تصور في الذهن البشري، ولكنها لا تسلب عن الذهن قدرة توليد معانٍ جديدة - لم تدرك بالحسَ - من المعاني المحسوسة، فليس من الضروري أن يكون قد سبق تصوّراتنا البسيطة جميعاً الإحساس بمعانيها كما تزعم النظرية الحسية، فالحسَ في ضوء التجارب الأنفة الذكر هو البنية الأساسية التي يقوم على قاعدها التصور البشري، ولا يعني ذلك: تجريد الذهن عن الفعالية وابتكار تصوّرات جديدة في ضوء التصورات المستوردة من الحسَ.

ثالثاً - نظرية الأفكار الفطرية، ويقول بها عدد من الفلاسفة منهم ديكارت وكانت، وهم يرون: أن هناك مصدرين لانتقال المعلومات أو التصورات إلى ذهن الإنسان، وهما: الإحساس والفطرة، أي: أن هذه

النظرية تتفق مع النظرية الحسيّة في كون الحواس الخمس مصدراً للتصورات، ولكنها تضيف إلى الحواس مصدراً آخر وهو الفطرة، ومراد أصحاب هذه النظرية: أن الإنسان خلق وهو يحمل فطريّاً عدداً من التصورات، فكما أنه خلق مزوداً بأعضاء الهضم والتنفس مثلاً، فإنه خلق وهو يحمل مجموعة من التصورات الذهنية، مثل تصوره لله تعالى وللروح والحب والبغض، وغيرها من المعلومات الواضحة في ذهن الإنسان، والتي نعلم بأنها لم تصل إلى الذهن عن طريق الحواس.

والذي اضطر العقليين إلى اتخاذ هذه النظرية في تعليل التصورات البشرية، هو أنّهم لم يجدوا طائفة من المعاني والتصورات مبرراً لأنباثها عن الحس؛ لأنّها معانٍ غير محسوسة، فيجب أن تكون مستنبطة للنفس استنبطاً ذاتياً من صميمها، ويتبّع من هذا: أن الدافع الفلسفـي إلى وضع هذه النظرية يزول تماماً إذا استطعنا أن نفسّر التصورات الذهنية نفسـيراً متماسكاً من دون حاجة إلى افتراض أفكار فطرية.

رابعاً: نظرية الانتزاع، وهي النظرية التي يتبنّاها عدد من الفلاسفة المسلمين، وتتلخص هذه النظرية في تفسير التصورات الذهنية إلى قسمين: تصوّرات أولية، وتصوّرات ثانوية، فالتصوّرات الأولية هي

الأساس التصورى للذهن البشري، وتولد هذه التصورات من الإحساس بمحفوياتها بصورة مباشرة، فنحن نتصور الحرارة لأننا أدركناها باللمس، ونتصور اللون لأننا أدركناه بالبصر، ونتصور الحلاوة لأننا أدركناها بالذوق، ونتصور الرائحة لأننا أدركناها بالشم، وهكذا جميع المعانى التي ندركها بحواسنا، فإن الإحساس بكل واحد منها هو السبب في تصوره ووجود فكرة عنه في الذهن البشري، وتشكل من هذه المعانى القاعدة الأولية للتصور، وينشىء الذهن بناء على هذه القاعدة التصورات الثانوية، فيبدأ بذلك دور الابتكار والإنشاء، وهو الذي تصطلح عليه هذه النظرية بلفظ (الانتزاع) فيولد الذهن مفاهيم جديدة من تلك المعانى الأولية، وهذه المعانى الجديدة خارجة عن طاقة الحس، وإن كانت مستنبطة ومستخرجة من المعانى التي يقدمها الحس إلى الذهن والفكر.

وهذه النظرية مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَطْوَنِ أُمَّهاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ لِعِلْمِكُمْ تَشْكِرُونَ﴾^(١).

(١) النحل - ٧٨.

فالحواس مصدر للمعرفة، والمصدر الثاني هو العقل الذي منحه الله تعالى القدرة على إدراك المعاني والأشياء التي لا تصل إليها الحواس.

فالفقرة الأولى من الآية، وهي قوله تعالى: **﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْوَنِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾** تجعلنا نرفض نظرية الأفكار الفطرية، وأن هناك صوراً موجودة في ذهن الإنسان منذ ولادته؛ فانها تصرّح بأن الله عندما خلق الإنسان لم يخلق في ذهنه شيئاً من المعلومات والتصورات.

وأما الفقرة الثانية من الآية: فهي تبيّن أثر الحواس في تزويد الإنسان بالمعلومات، بقوله تعالى: **﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾**، وهما مثالان للحواس الخمس التي هي أجهزة تزود الإنسان بالصور الذهنية.

ولا تقف الآية عند هذا الحد، بل تنص على أثر العقل في المعرفة أيضاً بقوله تعالى: **﴿وَالْأَفْنَدَة﴾**، والفؤاد أو القلب هو القوة العاقلة في المفهوم الإسلامي، قال تعالى: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾**^(١).

إن أثر الحواس في تزويد الذهن بالتصورات واضح جداً، ولكن العقل لا يقتصر على التصورات التي تنقلها إليه الحواس، بل إنه يستخدم

(١) الحج - ٤٦.

هذه التصورات ويستفيد منها في إدراك معانٍ أخرى لا تستطيع الحواس أن تصل إليها.

وبعبارة أخرى: إن الحواس الخمس تقدم للذهن كثيراً من المعلومات، ولكن يبقى للعقل أثر أساسى أيضاً، إذ يتزرع من الصور التي تقدمها له الحواس صوراً أخرى ليس بسع الحواس تقديمها له مباشرة. مثال ذلك: إدراك الإنسان لمعنى السبيبة أو العلية، فنحن حينما نضع الماء على النار، ندرك بحاسة البصر تبخر الماء، وندرك بحاسة اللمس الحرارة، ثم يقوم العقل بادراك صورة ثالثة وهي: (الحرارة سبب التبخر)، فهذه الصورة الثالثة لم تنطبع على صفحة العقل عن طريق الحواس، بل توصل إليها العقل بذاته، بعد أن قدمت لها حاستا البصر واللمس صورة الحرارة وصورة التبخر.

▣ الخلاصة

- المعرفة الإنسانية هي وجود صور الأشياء في الذهن.
- نظرية الاستذكار، ترى: أنَّ معلومات الإنسان هي: انعكاسات ذهنية للمحاقن المجردة التي كان الإنسان على علم بها في عالم المثل.
- النظرية الحسية ترى: أنَّ الحواس الخمس هي المصدر الوحيد

الذى يزود الذهن بالمعرفة.

- نظرية الأفكار الفطرية ترى: أن الإنسان يولد وهو مزود بأفكار إضافية إلى ما تدركه حواسه.
- نظرية الانتزاع ترى أن الإنسان يحصل على معلوماته من طريقين: الحواس والعقل؛ فقد خلق الإنسان وله استعداد عقلي لتلقي مدركات الحواس، واستنباط مدركات أخرى منها.

❖ أسئلة

- ١ - عِرَفِ الْإِدِراكَ أَوِ الْمَعْرِفَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ.
- ٢ - مَا هُوَ مَصْدَرُ الْمَعْرِفَةِ فِي رأِيِ الْقَانِلِينَ بِنَظَرِيَّةِ الْاسْتِدْكَارِ؟
- ٣ - مَا هُوَ مَصْدَرُ الْمَعْرِفَةِ فِي رأِيِ أَصْحَابِ النَّظَرِيَّةِ الْحَسِيَّةِ؟
- ٤ - مَثَلُ لِلتَّصْوِيرَاتِ الَّتِي تَرَوَدَنَا بِهَا كُلُّ مِنْ حَاسَةٍ: الْبَصَرُ، السَّمْعُ، الْأَوْقُ، الشَّمُ، اللَّمْسُ.
- ٥ - قارن بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ الْحَسِيَّةِ وَنَظَرِيَّةِ الْأَفْكَارِ الْفَطَرِيَّةِ بِشَأنِ مَصْدَرِ الْمَعْرِفَةِ.
- ٦ - قارن بَيْنَ النَّظَرِيَّةِ الْحَسِيَّةِ وَنَظَرِيَّةِ الْانْتَزَاعِ، فِي تَحْدِيدِ مَصْدَرِ الْمَعْرِفَةِ.

- ٧- ما هو الدافع للقول بوجود تصورات فطرية في ذهن الإنسان؟
- ٨- لماذا رفض الفلاسفة المسلمون وجود أفكار فطرية في ذهن الإنسان؟
- ٩- ما هو الدليل على كون العقل من مصادر التصور في رأي الفلاسفة المسلمين؟
- ١٠- مثل للمعلومات التي يدركها العقل، والتي لا يمكن إدراكتها عن طريق الحواس مباشرة.

البحث الثاني
كيف نميز الحقيقة من الخطأ؟

■ **المذهب العقلي**

كل إنسان يعلم أن المعلومات التي لدى الناس فيها الصحيح وفيها الخطأ، وقد بحث الإنسان منذ القديم عن الميزان أو القاعدة التي يستطيع أن يميّز بها المعلومات الصحيحة عن الخاطئة.

والمذهب السائد لدى المسلمين ومعظم الفلاسفة القدماء هو المذهب العقلي القائل: إن العقل بما يملك من معلومات بدئية هو المقياس الأساسي لمعرفة الحقيقة.

فأصحاب المذهب العقلي يرون: أن المعلومات العقلية تنقسم على قسمين، أولهما: المعلومات البدئية، والثاني: المعلومات النظرية.

□ تعريف المعلومات البدائية والمعلومات النظرية

والفرق بين القسمين: أن المعلومات البدائية لا تحتاج إلى دليل لإثبات صحتها؛ لأن العقل يذعن بصحتها بلا حاجة إلى دليل، كالمعلومات التالية:

- الواحد نصف الاثنين.

- الكل أكبر من الجزء.

- القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صادقة وكاذبة في الوقت نفسه.

واما المعلومات النظرية، فهي: التي تحتاج إلى اثبات ودليل لكي نقنع بصحتها، ومن أمثلتها:

- الأرض كروية.

- الحركة سبب الحرارة.

- المعادن تتمدد بالحرارة.

وفي الطريقة العقلية تكون المعلومات البدائية هي القاعدة الأساسية لاختبار صحة المعلومات، فحينما تواجهنا قضية نظرية نقوم بإثبات صحتها بمعلومات أخرى ، وهذه المعلومات التي نستعملها في الإثبات اذا لم تكن بدائية، فسوف تحتاج هي أيضاً إلى دليل لإثبات صحتها، وهكذا حتى نصل في النهاية إلى المعلومات البدائية، فنقف

عندما.

فالمنذهب العقلي يوضح أنَّ الحجر الأساسي للعلم هو: المعلومات العقلية الأولى، وعلى ذلك الأساس تقوم البنيات الفوقيَّة للفكر الإنساني التي تُسمى بالمعلومات الثانوية.

والعملية التي تستتبع بها معرفة نظرية من معارف سابقة هي العملية التي نطلق عليها اسم الفكر والتفكير، فالتفكير: جهد يبذله العقل في سبيل اكتساب تصديق وعلم جديد من معارفه السابقة، بمعنى: أنَّ الإنسان حين يحاول أن يعالج قضية جديدة كقضية (حدوث المادة) - مثلاً - ليتأكد من أنها حادثة أو قديمة، يكون بين يديه أمران، أحدهما: الصفة الخاصة وهي (الحدث)، والأخر: الشيء الذي يريد أن يتحقق من اتصافه بتلك الصفة وهو (المادة)، ولما لم تكن القضية من الأوليات العقلية، فالإنسان سوف يتربَّد بطبيعته في إصدار الحكم والأذعان بحدوث المادة، ويلجأ حينئذ إلى معارفه السابقة؛ ليجد فيها ما يمكنه أن يرکِّز عليه حكمه ويجعله واسطة للتعرُّف على حدوث المادة، وتبدأ بذلك عملية التفكير باستعراض المعلومات السابقة، ولنفترض أنَّ من جملة تلك الحقائق التي كان يعرفها المفكِّر سلفاً هي (الحركة الجوهرية) التي تقرَّر: أنَّ المادة حركة مستمرة وتجدد دائم، فانَّ الذهن

سيضع يده على هذه الحقيقة حينما تمر أمامه في الاستعراض الفكري، و يجعلها همسة الوصل بين المادة والحدث؛ لأن المادة لما كانت متتجددة، فهي حادثة حتماً؛ لأن التغير المستمر يعني الحدوث على طول الخط، وتولد عندئذ معرفة جديدة للإنسان وهي: أن المادة حادثة؛ لأنها متحركة ومتتجددة، وكل متتجدد حادث.

وهكذا استطاع الذهن أن يربط بين الحدوث والمادة، وهمسة الرابط هي حركة المادة؛ فإن حركتها هي التي جعلتنا نعتقد بأنها حادثة؛ لأننا نعلم أن كل متحرك حادث.

□ علاقة السببية بين المعلومات

ولأجل ذلك يؤكد العقليون وجود علاقة سببية بين المعلومات الذهنية، وأن كل معرفة تتولد من معرفة سابقة، حتى ينتهي التسلسل إلى المعارف البديهية التي لم تنشأ من معارف سابقة، وتكون لهذا السبب العلل الأولى للمعرفة الإنسانية.

وهذه العلل الأولى للمعرفة على نحوين، أحدهما: ما كان شرطاً أساسياً لكل معرفة إنسانية بصورة عامة، والأخر: ما كان سبباً لقسم من المعلومات، والأول هو: مبدأ عدم التناقض؛ فإن هذا المبدأ لازم لكل

معرفة، وبدونه لا يمكن التأكّد من أن قضيّةً مَا ليست كاذبة، مهما أقمنا من الأدلة على صدقها وصحتها؛ لأنَّ التناقض إذا كان جائزًا فمن المحتمل أن تكون القضية كاذبة في نفس الوقت الذي نبرهن فيه على صدقها، ومعنى ذلك: أنَّ سقوط مبدأ (عدم التناقض) يعصف بجميع قضايا الفلسفة والعلوم على اختلاف ألوانها، وال نحو الثاني من المعارف الأولى هو: سائر المعارف الضرورية الأخرى التي تكون كلَّ واحدة منها سبباً لطائفة من المعلومات.

وبناءً على المذهب العقلي يتربّب ما يأتي:

أولاً: أنَّ المقياس الأول للتفكير البشري بصورة عامة هو: المعارف العقلية الضرورية، فهي الركيزة الأساسية التي لا يُستغني عنها في كلَّ مجال، ويجب أن تقاد صحة كلَّ فكرة وخطؤها في ضوئها، ويصبح بموجب ذلك ميدان المعرفة البشرية أوسع من حدود الحسّ والتجربة؛ لأنَّه يجهّز الفكر البشري بطاقة تتناول ما وراء المادة من حقائق وقضايا، ويحقق للميتافيزيقاً والفلسفة العالية إمكان المعرفة، وعلى عكس ذلك المذهب التجريبي؛ فإنه يبعد مسائل الميتافيزيقاً عن مجال البحث؛ لأنَّها مسائل لا تخضع للتجربة، ولا يمتَّ إليها الحسّ العلمي، فلا يمكن التأكّد فيها من نفي أو إثبات ما دامت التجربة هي المقياس

الأساسي الوحيد، كما يزعم المذهب التجريبي.

وثانياً: إن السير الفكري في رأي العقليين يتدرج من القضايا العامة إلى قضايا أخص منها، من الكليات إلى الجرئيات، وحتى المجال التجريبي الذي يبدو لأول وهلة أن الذهن ينتقل فيه من موضوعات تجريبية جزئية إلى قواعد وقوانين عامة، يكون الانتقال والسير فيه من العام إلى الخاص - كما سنوضح ذلك عند الرد على المذهب التجريبي -
ولا بد أنك تتذكرة ما ذكرنا مثلاً لعملية التفكير، وكيف انتقلنا فيه من معرفة عامة إلى معرفة خاصة، واكتسبنا العلم بأن (المادة حادثة) من العلم بأن (كل متغير حادث)، فقد بدأ الفكر بهذه القضية الكلية (كل متغير حادث) وانطلق منها إلى قضية أخص منها وهي: (أن المادة حادثة).

وأخيراً يجب أن ننتبه على أن المذهب العقلي لا يتجاهل دور التجربة الجبار في العلوم والمعارف البشرية، وما قدمته من خدمات ضخمة للإنسانية، وما كشفت عنه من أسرار الكون وغواصات الطبيعة، ولكنه يعتقد أن التجربة بمفردها لم تكن تستطيع أن تقوم بهذا الدور الجبار؛ لأنها تحتاج في استنتاج أيَّة حقيقة علمية منها إلى تطبيق القوانين العقلية الضرورية، أي: أن يتم ذلك الاستنتاج في ضوء المعارف الأولية، ولا

يمكن أن تكون التجربة بذاتها المصدر الأساسي والمقياس الأول للمعرفة، ف شأنها شأن الفحص الذي يجريه الطبيب على المريض، فإن هذا الفحص هو الذي يتتيح له أن يكشف عن حقيقة المرض وملابساته، ولكن هذا الفحص لم يكن ليكشف عن هذا الولا ما يملكه الطبيب قبل ذلك من معلومات ومعارف، فلو لم تكن تلك المعلومات لديه لكان فحصه لغوًأ و مجردًا عن كل فائدة، وهكذا التجربة البشرية بصورة عامة لا تشق الطريق إلى نتائج وحقائق إلا في ضوء معلومات عقلية سابقة.

□ المذهب التجريبي

وقد سار الفلاسفة الغربيون على الطريقة العقلية، إلى أن ظهر فلاسفة المذهب الحسي أمثال جون لوك ودافيد هيوم وجورج باركلي، وقالوا: إن التجربة هي المقياس الأساسي للتأكد من صحة المعلومات، فلأجل أن تتأكد من أن الحديد يتمدد بالحرارة مثلاً، علينا أن نضع قطعة حديد في النار لنشاهد عملياً أنها تمدد بالحرارة أم لا؟ وكذلك الحال في كل قضية نريد إثبات صحتها أو خطئها.

فالتجريبيون لا يعترفون بالمعلومات العقلية البديهية، ويعتبرون التجربة هي المقياس الوحيد الذي تختبر به صحة جميع المعلومات.

وحتى تلك الأحكام التي ادعى المذهب العقلي أنها معارف ضرورية، لابد من إخضاعها للمقياس التجريبي والاعتراف بها بمقدار ما تحدده التجربة؛ لأن الإنسان لا يملك حكماً يستغني عن التجربة في إثباته، وينشأ من ذلك:

أولاً: تحديد طاقة الفكر البشري بحدود الميدان التجريبي، ويصبح من العبث كل بحث ميتافيزيقي أو دراسة لمسائل ما وراء الطبيعة، على عكس المذهب العقلي تماماً.

وثانياً: انطلاق السير الفكري للذهن البشري بصورة معاكسة لما يعتقد المذهب العقلي، فبينما كان المذهب العقلي يؤمن بأن الفكر يسير دائماً من العام إلى الخاص، يقرر التجربيون: أنه يسير من الخاص إلى العام، ومن حدود التجربة الضيقية إلى القوانين والقواعد الكلية، ويترقى دائماً من الحقيقة الجزئية التجريبية إلى المطلق، وليس ما يملكه الإنسان من قوانين عامة وقواعد كلية إلا حصيلة التجارب، ونتيجة هذا الارتفاع من استقراء الجزئيات إلى الكشف عن حقائق موضوعية عامة.

▣ **التجربة ليست مقياساً أساسياً لاختبار صحة المعلومات**
ونحن مع اقتناعنا بأن التجربة تصلح مقياساً للتأكد من صحة أو خطأ

كثير من المعلومات، فإننا لا نعتبرها المقياس الأساسي لتمييز الحقيقة عن الخطأ، بل المقياس هو المعلومات العقلية البديهية، وذلك للأدلة التالية:

الأول: أن نفس هذه القاعدة: (التجربة هي المقياس الأساسي لتمييز الحقيقة) هل هي معرفة أولية حصل عليها الإنسان من دون تجربة سابقة؟ أو أنها أيضاً كسائر المعارف البشرية ليست فطرية ولا ضرورية؟ فإذا كانت معرفة أولية سابقة على التجربة، بطل المذهب التجريبي الذي لا يؤمن بالمعارف الأولية، وثبت وجود معلومات إنسانية ضرورية بصورة مستقلة عن التجربة، وإذا كانت هذه المعرفة محتاجة إلى تجربة سابقة، فمعنى ذلك: أنا لا ندرك في بداية الأمر أن التجربة مقياس منطقي مضمون الصدق، فكيف يمكن البرهنة على صحته واعتباره مقياساً بتجربة ما دامت غير مضمونة الصدق بعد؟

وبكلمة أخرى: إن القاعدة المذكورة التي هي ركيزة المذهب التجريبي، إن كانت خطأ سقط المذهب التجريبي بانهيار قاعدته الرئيسية، وإن كانت صواباً، صح لنا أن نتساءل عن السبب الذي جعل التجريبيين يؤمنون بصواب هذه القاعدة، فإن كانوا قد تأكّدوا من صوابها بلا تجربة، فهذا يعني: أنها قضية بديهية وأن الإنسان يملك

حقائق وراء عالم التجربة، وإن كانوا قد تأكّدوا من صوابها بتجربة سابقة، فهو أمر مستحيل؛ لأنَّ التجربة لا تؤكّد قيمة نفسها.

الثاني: أنَّ المفهوم الفلسفى الذى يرتكز على المذهب التجريبى يعجز عن إثبات المادة؛ لأنَّ المادة لا يمكن الكشف عنها بالتجربة الخالصة، بل كلَّ ما يبدو للحسن في المجالات التجريبية إنما هو ظواهر المادة وأعراضها، وأما نفس المادة بالذات - الجوهر المادى الذى تعرضه تلك الظواهر والصفات - فهى لا تدرك بالحسن، فالوردة التي نراها على الشجرة أو نلمسها بيدنا إنما نحسن برائحتها ولونها ونعومتها، وحتى إذا تذوقناها، فإننا نحسن بطعمها، ولا نحسن في جميع تلك الأحوال بالجوهر الذي تلتقي جميع هذه الظواهر عند، وإنما تدرك هذا الجوهر ببرهان عقلي يرتكز على المعارف العقلية الأولية - كما سنشير إليه في البحوث المقبلة - ولأجل ذلك أنكر عدّة من الفلاسفة الحسينين التجريبيين وجود المادة، فالسند الوحيد لإثبات المادة هو معطيات العقل الأولية، ولو لاها لما كان في طاقة الحسن أن يثبت لنا وجود المادة وراء الرائحة الذكية وللون الأحمر والطعم الخاص للوردة.

وهكذا يتضح لنا: أنَّ الحقائق الميتافيزيقية ليست هي وحدتها التي يحتاج إثباتها إلى اتخاذ الطريقة العقلية في التفكير، بل المادة نفسها

كذلك أيضاً.

الثالث: أنَّ الفكر لو كان محبوساً في حدود التجربة، ولم يكن يملك معارف مستقلة عنها، لما أتيح له أن يحكم باستحالة شيءٍ من الأشياء مطلقاً؛ لأنَّ الاستحالة - بمعنى عدم إمكان وجود الشيء - ليست مما يدخل في نطاق التجربة، ولا يمكن للتجربة أن تكشف عنه، وقصيرى ما يتاح للتجربة أن تدلل عليه هو: عدم وجود أشياء معينة، ولكن عدم وجود شيء لا يعني استحالته، فهناك عدّة أشياء لم تكشف التجربة عن وجودها، بل دلت على عدمها في نطاقها الخاص، ومع ذلك فنحن لا نعتبرها مستحيلة، ولا نسلب عنها إمكان الوجود كما نسلبه عن الأشياء المستحيلة، فكم يبدو الفرق جلياً بين اصطدام القمر بالأرض، أو وجود بشر في المرّيخ، أو وجود إنسان يتمكّن من الطيران لمرونة خاصة في عضلاته من ناحية، وبين وجود مثلث له أربعة أضلاع، وجود جزء أكبر من الكلّ، وجود القمر حال انعدامه من ناحية أخرى، فإنَّ هذه القضايا جميعاً لم تتحقق ولم تقم عليها تجربة، فلو كانت التجربة هي المصدر الرئيسي الوحيد للمعارف، لما صبح لنا أن نفرق بين الطائفتين؛ لأنَّ كلمة التجربة فيها معاً على حد سواء، وبالرغم من ذلك فنحن جميعاً نجد الفرق الواضح بين الطائفتين، فالطائفة الأولى لم تقع، ولكنها جائزة

الواقع ذاتياً، وأما الطائفة الثانية فهي ليست معدومة فحسب، بل لا يمكن أن توجد مطلقاً، فالمثلث لا يمكن أن يكون له أضلاع أربعة سواء اصطدم القمر بالأرض أم لا، وهذا الحكم بالاستحالة لا يمكن تفسيره إلا في ضوء المذهب العقلي، بأن يكون من المعارف العقلية المستقلة عن التجربة.

وعليه الضوء يكون التجربيون بين سبيلين لا ثالث لهما: فاما أن يعترفوا باستحالة أشياء معينة كالأشياء التي عرضناها في الطائفة الثانية، وإما أن ينكروا مفهوم الاستحالة من الأشياء جميعاً.
فإن آمنوا باستحالة أشياء كالتي أمحنا إليها، كان هذا الإيمان مستنداً إلى معرفة عقلية مستقلة لا إلى التجربة؛ لأنَّ عدم ظهور شيء في التجربة لا يعني استحالته.

وإن أنكروا مفهوم الاستحالة، ولم يقرُّوا باستحالة شيء مهما كان غريباً لدى العقل، فلا يبقى على أساس هذا الإنكار فرق بين الطائفتين اللتين عرضناهما وأدركنا ضرورة التفرقة بينهما، وإذا سقط مفهوم الاستحالة لم يكن التناقض مستحيلاً - أي: وجود الشيء وعدمه، وصدق القضية وكذبها في لحظة واحدة - وجواز التناقض يؤدّي إلى انهيار جميع المعارف والعلوم، وعدم تمكّن التجربة من إزاحة الشك

والتردد في أي مجال من المجالات العلمية؛ لأن التجارب والأدلة مهما تظافرت على صدق قضية علمية معينة كقضية (الذهب عنصر بسيط)، فلا يمكننا أن نجزم بأنها ليست كاذبة، مادام من الممكن أن تتناقض الأشياء وتصدق القضايا وتکذب في الوقت نفسه.

▣ الخلاصة

- المعلومات البديهية هي: التي نعتقد بصحتها بلا حاجة إلى دليل.
- المعلومات النظرية هي: التي يحتاج إثباتها إلى معلومات أخرى.
- التفكير: جهد يبذل العقل لاكتساب معلومات جديدة من معلوماته السابقة.
- العلل الأولى للمعرفة على نحوين، أحدهما: ما كان شرطاً لكل معرفة، وهو: مبدأ عدم التناقض، والآخر: ما كان سبباً لقسم من المعلومات، وهو بقية المعارف الضرورية.
- التجربة مقياس صحيح لاختبار صحة بعض المعلومات، ولكنها ليست المقياس الأساسي، بل المقياس الأساسي هو المعلومات العقلية البديهية.

□ أسئلة

- ١- عَرَفَ بالمعلومات البدئية، ومثُل لها.
- ٢- عَرَفَ المعلومات النظرية، ومثُل لها.
- ٣- ما هو المقياس الأساسي لتمييز الحقيقة من الخطأ في رأي العقليين؟
- ٤- ما الذي يترتب على المذهب العقلي في مقياس المعرفة؟
- ٥- ما هو المقياس الأساسي لاختبار صحة المعلومات في رأي التجربيين؟
- ٦- ما الذي ينشأ من المذهب التجاري في مقياس المعرفة؟
- ٧- ما فائدة القاعدة القائلة: إنَّ الأشياء المتشابهة في الحقيقة يجب أن تشتراك في القوانين؟
- ٨- قارن بين هاتين القضيتين من حيث حكم التجربة والعقل في كلِّ منها: (وجود انسان يتمكن من الطيران لمرونة خاصة في عضلاته)، (وجود القمر حال انعدامه).
- ٩- لا يمكن استخدام التجربة لاثبات صحة القاعدة القائلة: (إن التجربة هي المقياس الأساسي لمعرفة الحقيقة)، بين علة عدم الامكان.
- ١٠- ما هو السبب في عجز المفهوم الفلسفي الذي يرتكز على المذهب التجاري عن اثبات المادة.

البحث الثالث

مبدأ العلية

■ التعريف بمبدأ العلية

مبدأ العلية من المبادئ الواضحة في الذهن الإنساني؛ فنحن نعلم أن بعض الموجودات يكون سبباً في وجود البعض الآخر، وأن الظواهر والأشياء لا يمكن أن توجد صدفة وبلا سبب.

فالإنسان إذا أدرك وجود شيء ما، وعلم بأنَّ ذلك الشيء لا يملك القدرة الذاتية على الوجود، فلا بد له من الاعتقاد بوجود سبب معين أو جد ذلك الشيء، ثم ينتقل بعد ذلك إلى السبب نفسه، فإذا وجده لا يمتلك القدرة الذاتية على الوجود، كان هو أيضاً بحاجة إلى سبب، وهكذا حتى نصل إلى علة تمتلك القدرة الذاتية على الوجود، ولا

تحتاج الى موجود، فنقف عندها، ونؤمن بأنها سبب الوجود كله.
وبالاعتماد على مبدأ العلية يستطيع العلماء أن يضعوا القوانين
العلمية، فالقانون العلمي القائل: إن الحركة سبب الحرارة، لا يمكن أن
يكون صحيحاً إذا كانت الأشياء تحدث صدفة، ولا تحتاج في وجودها
إلى سبب.

إنَّ مبدأ العلية هو الأساس الذي تعتمد عليه جميع محاولات الاستدلال؛ لأن إقامة الدليل على شيءٍ من الأشياء تعني: أن الدليل إذا كان صحيحاً فهو سبب للعلم بالشيء المستدل عليه، وحتى الاستدلال على رد مبدأ العلية ينطوي على الاعتراف بهذا المبدأ، فالذى يحاول إقامة الدليل على إنكار مبدأ العلية، إذا لم يعترف بوجود علاقات سببية بين الأشياء، لم يكن دليلاً سرياً كافياً للعلم ببطلان مبدأ العلية.

ومبدأ العلية لا يمكن إثباته عن طريق المذهب التجريبي، فكما أن النظرية الحسية كانت عاجزة عن إعطاء تعليل صحيح للعلية كفكرة تصورية، كذلك المذهب التجريبي يعجز عن البرهنة عليها بصفتها مبدأ وفكرة تصديقية؛ فإن التجربة لا يمكنها أن توضح لنا إلا التعاقب بين ظواهر معينة، فنعرف عن طريقها أن الماء يغلي إذا صار حاراً بدرجة منه، وأنه يتجمد حين تنخفض درجة حرارته إلى الصفر، وأما سبيله

إحدى الظاهرتين للأخرى والضرورة القائمة بينهما، فهي مما لا تكشفها وسائل التجربة مهما كانت دقيقة ومهما كررنا استعمالها، وإذا انهار مبدأ العلية، انهارت جميع العلوم الطبيعية كما استعرف.

▣ تفسير العلية بتصورين متعاقبين

وقد أنكر بعض التجربيين مبدأ العلية، وقالوا بعدم وجود علاقات سببية بين الأشياء والظواهر، وأدعوا أنَّ ما نسميه بقانون العلية ليس سوى عملية عقلية يتصور الإنسان فيها شيئاً متعاقبين على نحو متكرر، فيجعل أولهما علة للثاني، فتصور الإنسان للحرارة مثلاً يتعقبه دائماً تصوّره للغليان، وتعاقب هذين التصوّرين وتلازمهما في الذهن بشكل متكرر هو ما نسميه بعلية الحرارة للغليان، أما في الواقع، فليس هناك علاقة سببية بين الحرارة والغليان، بنحو يتوقف وجود الغليان فيه على وجود الحرارة.

▣ مناقشة دليل المنكرين لمبدأ العلية

ولكن إنكار مبدأ العلية وتفسيره بتصورين متلازمين متعاقبين ليس صحيحاً للأدلة التالية :

أولاً: أنه يلزم على هذا التفسير أن لا نصل إلى قانون العلية العام إلا بعد سلسلة من الحوادث والتجارب المتكررة التي تحكم الرباط بين فكري العلة والمعلول في الذهن، مع أنه ليس من الضروري ذلك؛ فإنَّ العالم الطبيعي يستطيع أن يستنتج علاقة علية وضرورة بين شيئين يقعان في حادثة واحدة، ولا يزداد يقينه شيئاً عما كان عليه عند مشاهدته الحادثة للمرة الأولى، كما لا تزداد علاقة العلية قوَّة بتكرار حوادث أخرى يوجد فيها المعلول والعلة نفسها.

وثانياً: لندع الظاهرتين المتعاقبتين في الخارج، ولنلاحظ فكريهما في الذهن - أي: فكرة العلة وفكرة المعلول - فهل العلاقة القائمة بينهما علاقة ضرورية أو علاقة مقارنة كما يقترن تصورنا للحديد بتصورنا للسوق الذي يباع فيه؟ فإن كانت علاقة ضرورية فقد ثبت مبدأ العلية، واعترف ضمناً بقيام علاقة غير تجريبية بين فكريتين، وهي علاقة الضرورة؛ فإنَّ الضرورة سواء أكانت بين فكريتين أم بين واقعين موضوعيين، لا يمكن إثباتها بالتجربة الحسية، وإن كانت العلاقة مجرد مقارنة لم يتحقق ما أرادوه من تفسير عنصر الضرورة في قانون العلة والمعلول.

وثالثاً: إنَّ العلة والمعلول قد يكونان مقترين تماماً، ومع ذلك

ندرك عملية أحدهما للأخر، كحركة اليد وحركة القلم حال الكتابة؛ فإن حركة اليد وحركة القلم توجدان دائمًا في وقت واحد، فلو كان مرد الضرورة والعالية إلى استتباع إحدى العمليتين العقليتين للأخرى بالتداعي، لما أمكن في هذا المثال أن تتحلل حركة اليد مركز العلة لحركة القلم؛ لأن العقل قد أدرك الحركتين في وقت واحد، فلماذا وضع أحدهما موضع العلة، والأخرى موضع المعلول؟

وبكلمة أخرى: إن تفسير العالية بضرورة سيكولوجية يعني: أن العلة إنما اعتبرت علة لا لأنها في الواقع الموضوعي سابقة على المعلول وموئلة له، بل لأن إدراكتها يتعقبه دائمًا إدراك المعلول بتداعي المعاني، فتكون لذلك علة له، وهذا التفسير لا يمكنه أن يشرح لنا كيف صارت حركة اليد علة لحركة القلم، مع أن حركة القلم لا تجيء عقب حركة اليد في الإدراك، وإنما تدرك الحركتان معاً، فلو لم يكن لحركة اليد سبق واقعي وسبيكة موضوعية لحركة القلم، لما أمكن اعتبارها علة.

رابعاً: أن التداعي كثيراً ما يحصل بين شيئين دون الاعتقاد بعلية أحدهما للأخر، فلو صحت تفسير العلة والمعلول بأنهما حادثان ندرك تعاقبهما كثيراً حتى تحصل بينهما رابطة تداعي المعاني في الذهن، لكن الليل والنهار من هذا القبيل، فكما أن الحرارة والغليان حادثان

تعاقباً حتى نشأت بينهما رابطة التداعي، كذلك الليل والنهار وتعاقبهما وتداعييهما، مع أنَّ عنصر العلية والضرورة الذي ندركه بين الحرارة والغليان ليس موجوداً بين الليل والنهار، فليس الليل علة للنهار، ولا النهار علة للليل، فلا يمكن إذن تفسير هذا العنصر بمجرد التعاقب المتكرر المؤدي إلى تداعي المعاني.

ونخلص من ذلك إلى: أنَّ المذهب التجريبي يؤدِّي حتماً إلى اسقاط مبدأ العلية، والعجز عن إثبات علاقات ضرورية بين الأشياء، وإذا سقط مبدأ العلية انهارت جميع العلوم الطبيعية باعتبار ارتكازها عليه كما سترى.

إنَّ العلوم الطبيعية التي يريد التجربيون إقامتها على أساس التجربة الخالصة، هي بنفسها تحتاج إلى أصول عقلية أولية سابقة على التجارب؛ ذلك أنَّ التجربة إنما يقوم العالم بها في مختبره على جزئيات موضوعية محدودة، فيضع نظرية لتفسير الظواهر التي كشفتها التجربة في المختبر وتعليقها بسبب واحد مشترك، كالنظرية القائلة: إنَّ سبب الحرارة هو الحركة، استناداً إلى عدة تجارب فسرت بذلك، ومن حقنا على العالم الطبيعي أن نسأله عن كيفية إعطائه للنظرية بصفة قانون كلي ينطبق على جميع الظروف المماثلة لظروف التجربة، مع أنَّ التجربة لم تقع إلا على

عدة أشياء خاصة، أفلبس هذا التعميم يستند إلى قاعدة، وهي: أن الظروف المتماثلة والأشياء المتشابهة في النوع والحقيقة يجب أن تشارك في القوانين والتوا咪ں؟ وهنالك سؤال مراجـعـاً آخرـاً عن هذه القاعدة، كيف توصل إليها العقل؟ ولا يمكن للتجربـيـين هنا أن يزعموا أنها قاعدة تجربـيـة، بل يجب أن تكون من المعارف العقلية السابقة على التجربـة؛ لأنـها لو كانت مستـنـدة إلى تجربـة، فـهـذه التجربـة التي تـرـتكـزـ علىـهاـ القـاعـدةـ هيـ أـيـضاـ لاـ تـتـناـولـ إـلـاـ موـارـدـ خـاصـةـ،ـ فـكـيفـ رـكـزـتـ عـلـىـ اـسـاسـهاـ قـاعـدةـ عـامـةـ؟ـ فـبـنـاءـ قـاعـدةـ عـامـةـ وـقـانـونـ كـلـيـ فيـ ضـوءـ تـجـربـةـ وـاحـدةـ أوـ عـدـةـ تـجـارـبـ،ـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـتـمـ إـلـاـ بـعـدـ التـسـلـيمـ بـمـعـارـفـ عـقـلـيـةـ سـابـقـةـ.

وبهذا يتضح: أن جميع النظريات التجربـيـة في العلوم الطبيعـية تـرـتكـزـ علىـ عـدـةـ مـعـارـفـ عـقـلـيـةـ لـاـ تـخـضـعـ لـلـتـجـربـةـ،ـ بلـ يـؤـمـنـ العـقـلـ بـهـاـ إـيمـانـاـ مـباـشـراـ،ـ وـهـيـ:

أولاً: مبدأ العلـىـ بـمـعـنىـ: اـمـتـنـاعـ الصـدـفـةـ،ـ ذـلـكـ أـنـ الصـدـفـةـ لـوـ كـانـتـ جـائـزةـ لـمـاـ أـمـكـنـ لـلـعـالـمـ الطـبـيـعـيـ أـنـ يـصـلـ إـلـىـ تـعـلـيلـ مشـترـكـ لـلـظـواـهـرـ المتـعـدـدـةـ التـيـ ظـهـرـتـ فـيـ تـجـارـبـهـ.

ثـانيـاـ: مـبـادـاـ الانـسـجـامـ بـيـنـ الـعـلـةـ وـالـمـعـلـوـلـ الذـيـ يـقـرـرـ:ـ أـنـ الـأـمـورـ

المتماثلة في الحقيقة لا بد أن تكون مستندة إلى علة مشتركة.

ثالثاً: مبدأ عدم التناقض الحكم باستحالة صدق النفي والإثبات معاً.

فإذا أمن العالم بهذه المعرف السابقة على التجربة، ثم أجري تجاربه المختلفة على أنواع الحرارة وأقسامها، استطاع أن يقرر في نهاية المطاف نظرية في تعليل الحرارة بمختلف أنواعها بعلة واحدة كالحركة - مثلاً -. وهذه النظرية لا يمكن في الغالب تقريرها بشكل حاسم وصورة قطعية؛ لأنها إنما تكون كذلك إذا أمكن التأكيد من عدم إمكان وجود تفسير آخر لتلك الظواهر وعدم صحة تعليلها بعلة أخرى، وهذا ما لا تتحققه التجربة في أغلب الأحيان، ولهذا تكون نتائج العلوم الطبيعية ظنية في أكثر الأحيان؛ لأجل نقص في التجربة وعدم استكمال الشرائط التي تجعل منها تجربة حاسمة.

ويَتَضَعُ لِنَا فِي ضُوءِ مَا سَبَقَ: أَنَّ اسْتِنْتَاجَ نَتْيَاجَ عَلْمِيَّةٍ مِنَ التَّجْرِيبِ يَتَوَقَّفُ دَائِمًا عَلَى الْإِسْتِدَالَ الْقِيَاسِيِّ، الَّذِي يَسِيرُ فِي الْذَّهَنِ الْبَشَرِيِّ مِنَ الْعَامِ إِلَى الْخَاصِّ، وَمِنَ الْكُلِّيِّ إِلَى الْجُزْئِيِّ، كَمَا يَرَى الْمَذْهَبُ الْعُقْلِيُّ تَمَامًا؛ فَإِنَّ الْعَالَمَ تَمَّ لَهُ اسْتِنْتَاجُ النَّتْيَاجِ فِي الْمَثَالِ الَّذِي ذُكِرَنَاهُ بِالسِّيرِ مِنَ الْمَبَادِئِ الْأُولَى الْثَّلَاثَةِ الَّتِي عَرَضْنَاهَا، وَهِيَ: (مَبْدَأُ الْعُلَيَّةِ)، (مَبْدَأُ الْاِنْسِجَامِ)، (مَبْدَأُ عَدْمِ التَّنَاقُضِ)، إِلَى تَلْكَ النَّتْيَاجَ الْخَاصَّةِ عَلَى طَرِيقَةٍ

القياس.

ومرة أخرى نؤكد: أننا لا ننكر على التجربة فضلها العظيم على الإنسانية ومدى خدمتها في ميادين العلم، وإنما نريد أن يفهم هؤلاء التجاربيون أن التجربة ليست هي المقياس الأول والمنبع الأساسي للأفكار والمعارف الإنسانية، بل المقياس الأول والمنبع الأساسي هو المعلومات الأولية العقلية، التي نكتسب في ضوئها جميع المعلومات والحقائق الأخرى، حتى إن التجربة بذاتها محتاجة إلى المقياس العقلي، فنحن والأخرون على حد سواء في ضرورة الاعتراف بذلك المقياس الذي ترتكز عليه أسس فلسفتنا الالهية، وإذا حاول التجاربيون بعد ذلك أن ينكروا ذلك المقياس؛ ليطلووا علينا فلسفتنا، فهم ينسفون بذلك الأسس التي تقوم عليها العلوم الطبيعية، ولا تتمر بدونها التجارب الحسّية شيئاً.

▣ الخلاصة

- معنى مبدأ العلية: أن الظواهر والأشياء لا يمكن أن تحدث بلا سبب.
- مبدأ العلية من المعلومات البدائية التي يقنع بها الإنسان دون

حاجة الى دليل.

- المنكرون لمبدأ العلية يريدون أن يكون دليлем سبباً وعلة لإقناعنا ببطلان مبدأ العلية، مع أنهم بهذا الاستدلال يطبقون هذا المبدأ، ويثبتون صحته عملياً.

□ أسئلة

- ١- ما هي الأشياء التي تحتاج في وجودها الى علة؟
- ٢- بين أهمية ثبوت مبدأ العلية بالنسبة الى وضع القوانين العلمية.
- ٣- كيف ثبت وجود العلة الأولى للوجود كله؟
- ٤- ما هو الدليل على عدم إمكان إثبات مبدأ العلية بواسطة التجربة؟
- ٥- بماذا فسر المنكرون لمبدأ العلية علاقة السبيبة بين الأشياء كالحرارة والغليان؟
- ٦- يلزم من تفسير العلية بتصورين متعاقبين، أن لا ندرك علية أحد الشيئين للأخر، الا بعد تكرر تصور أحدهما بعد الآخر، بين مخالفة ذلك للواقع.
- ٧- علام يدل إدراكنا للعلية حركة اليد لحركة القلم، رغم أنهما مفترضان زماناً؟

- ٨- قد يحصل التعاقب بين شيئين ولا نعتقد بعلية أحدهما للأخر،
وَضَحَ ذلك بمثال.
- ٩- كيف يكون الدليل على إنكار مبدأ العلية، مؤدياً إلى إثبات هذا
المبدأ؟
- ١٠- ما هي النتائج الخطيرة التي يؤدّي إليها العجز عن إثبات علاقات
العلية بين الأشياء؟

البحث الرابع

التجربة واليقين الرياضي

■ الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي

هناك اتجاهان في تحديد مقياس المعرفة الإنسانية:

أولهما: الاتجاه السائد لدى الفلاسفة المسلمين وعدد كبير من الفلاسفة القدماء والمحدثين، وهو الاتجاه العقلي القائل: إن المعلومات البدئية هي المقياس الأساسي لاختبار صحة المعلومات.

وثانيهما: الاتجاه التجريبي الذي ينكر المعارف البدئية، ويدعى: أن التجربة هي المقياس الأساسي للمعرفة.

والاتجاه التجريبي يعجز عن تفسير صفة اليقين المطلقة التي تتميز بها المعلومات الرياضية عن قضايا العلم الطبيعي، ولأجل إيضاح ذلك

نعرض أمثلة للقضايا الرياضية والطبيعية، ثم نشرح أهم الفروق بينهما.

فمن أمثلة القضايا الرياضية :

- المثلث له ثلاثة اضلاع.

- الاثنين نصف الأربعة.

.٤ = ٢ + ٢ -

ومن أمثلة القضايا الطبيعية :

- المعادن تتمدد بالحرارة.

- الماء يغلي اذا صار حاراً بدرجة مئة.

وأهم الفروق بين هذين النوعين من المعلومات يتلخص بما يلي :

أولاً: أن المعلومات الرياضية تمتاز بكونها يقينية، لأننا نتصور امكانية

الشك فيها بحال، بينما يمكن أن نشك في القضايا الطبيعية، فلو أن عدداً

كبيراً من الاشخاص المؤوثق بهم لفهمهم للتجارب العلمية، أخبرونا

بوجود نوع من المعادن لا يتمدد بالحرارة، لتوقف اقتناعنا بهذه القضية،

بينما لا يطرأ الشك في صدق القضية الرياضية القائلة: إن الاثنين نصف

الأربعة، حتى لو أخبرنا عدداً هائلاً من الاشخاص بأن الاثنين تكون

أحياناً ثلث الأربعة.

ثانياً: أن قضايا العلوم الطبيعية، وإن كان فيها تعميم يتجاوز حدود

التجربة، ولكن هذا التجاوز لا يتعدى ظروف وشروط التجربة، فحين نقرر بعد بضعة تجارب أن المعادن تمدد بالحرارة، ونعطي قاعدة كافية تتجاوز بها حدود التجارب: التي أجريناها، فليس بإمكاننا أن نتجاوز بهذا التعميم ظروف التجربة وشروطها؛ فاننا إذا تصورنا عالماً آخر غير هذا العالم الذي نعيش فيه، فمن الممكن أن نتصور المعادن في ذلك العالم لا تمدد بالحرارة، أي: أن التعميم في هذه القضية محدود بالعالم الذي وقعت التجربة فيه، وعلى عكس ذلك المعلومات الرياضية؛ فإن القضية الرياضية القائلة: $2 + 2 = 4$ صادقة في كل عالم نتصوره، ولا يمكن للعقل الإنساني أن يتصور عالماً ينبع فيه عن مضاعفة الاثنين خمسة، أي: أن التعميم في القضية الرياضية يتعدى حدود عالم التجربة، ليشمل كل ما يمكن أن نفترضه من العوالم.

ثالثاً: أن تكرار التجارب له تأثير في زيادة اقتناعنا بالقضايا الطبيعية، فكلما وجدنا أمثلة أكثر لتمدد المعادن أو غليان الماء بالحرارة، ازدادنا تأكداً وثقة بالقضية، أما القضايا الرياضية فإن الأمر فيها يختلف؛ فان الإنسان ما إن يجمع خمسة كتب مع خمسة كتب أخرى، ويعرف أن مجموعهما عشرة، يمكنه أن يحكم بأن كل خمسين تساويان عشرة، سواء أكانت الأشياء المعدودة كتباً أم أشياء أخرى، ولا يزداد اليقين بهذه

القضية بتكرار الأمثلة.

وفي ضوء المذهب العقلي نستطيع أن نفسر صفة الضرورة واليقين المطلق التي تمتاز بها الرياضيات على قضايا العلم الطبيعي؛ فان مرد هذا الامتياز إلى أنَّ القوانين والحقائق الرياضية الضرورية تستند إلى مبادئ العقل الأولى، ولا تتوقف على مستكشفات التجربة، وعلى العكس من ذلك قضايا العلم؛ فإنَّ تمدد الحديد بالحرارة ليس من المعطيات المباشرة لتلك المبادئ، وإنما يرتكز على معطيات التجربة، فالطابع العقلي الصارم هو سرُّ الضرورة واليقين المطلق في تلك الحقائق الرياضية.

وأماماً إذا درسنا الفارق بين الرياضيات والطبيعتيات في ضوء المذهب التجريبي، فسوف لن نجد مبرراً حاسماً لهذا الفرق، ما دامت التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة العلمية في كلا الميدانين.

وقد حاول بعض أنصار المذهب التجريبي تفسير الفرق على أساسه المذهبي عن طريق القول بأنَّ قضايا الرياضيات تحليلية ليس من شأنها أن تأتي بجديد، فعندهما تقول: $(2 + 2 = 4)$ ، لم تتحدث بشيء جديد لنفحص درجة يقيننا به؛ فإنَّ الأربعة هي نفسها تعبير آخر عن $(2 + 2)$ ، فالعملية الرياضية الآنفة الذكر في تعبير صريح ليست إلا أنَّ أربعة

تساوي أربعة، وكلَّ قضايا الرياضيات امتداد لهذا التحليل، ولكنه امتداد يتفاوت في درجة تعقيده، وأما العلوم الطبيعية فليست كذلك؛ لأنَّ قضاياها تركيبية، أي: إنَّ المحمول فيها يضيف إلى الموضوع علماً جديداً، أي ينبع بتجديد على أساس التجربة، فإذا قلت: إنَّ الماء يغلي تحت ضغط كذا عندما تصبح درجة حرارته مئة مثلاً، فإنَّي أفيد علماً، لأنَّ كلمة ماء لا تتضمن كلمة حرارة وضغط وغليان، ولأجل ذلك كانت القضية العلمية عرضة للخطأ والصواب.

ولكن من حقنا أن نلاحظ على هذه المحاولة لتبسيير الفرق بين الرياضيات والطبيعيات:

أولاً: أنَّ اعتبار القضايا الرياضية تحليلية لا يفسر الفرق على أساس المذهب التجريبى، فهو أنَّ $(2+2=4)$ تعبير آخر عن قولنا: أربعة هي أربعة؛ فإنَّ هذا يعني: أنَّ هذه القضية الرياضية تتوقف على التسليم بمبدأ عدم التناقض، وإنَّا فقد لا تكون الاربعة هي نفسها، إذا كان التناقض ممكناً، وهذا المبدأ ليس في رأي المذهب التجريبى عقلياً ضرورياً؛ لأنه ينكر كلَّ معرفة قبليَّة، وإنَّما هو مستمدٌ من التجربة كالمبادىء التي تقوم على أساسها القضايا العلمية في الطبيعيات، وهكذا تبقى المشكلة دون حلٍّ؛ إذ ما دامت الرياضيات والعلوم الطبيعية تتوقف جمِيعاً على

مبادئ، تجريبية، فلماذا تمتاز قضايا الرياضيات على غيرها باليقين الضروري المطلقاً؟

وثانياً: نحن لا نقر بأنَّ قضايا الرياضيات كلُّها تحليلية وامتداد لمبدأ أنَّ أربعة هي أربعة، وكيف تكون الحقيقة القائلة: إنَّ القطر أقصر دائمًا من المحيط، قضية تحليلية؟ فهل كان القصر أو المحيط مندمجاً في معنى القطر؟ وهل هي تعبر آخر عن القول: بأنَّ القطر هو قطر.

ونخلص من هذا إلى أنَّ المذهب العقلي هو وحده المذهب الذي يستطيع أن يحل مشكلة تعليل المعرفة ويضع لها مقاييسها ومبادئها الأولية.

ولكن بقي علينا أن ندرس من المذهب العقلي نقطة واحدة، وهي: أن المعلومات الأولية إذا كانت عقلية وضرورية، فكيف يمكن أن يفسر عدم وجودها مع الإنسان منذ البداية وحصوله عليها في مرحلة متاخرة عن ولادته؟ وبكلمة أخرى: إن تلك المعلومات إذا كانت ذاتية للإنسان فيجب أن توجد بوجوهه، ويستحيل أن يخلو منها لحظة من حياته، وإذا لم تكن ذاتية لزم أن يوجد لها سبب خارجي وهو التجربة، وهذا مالا يوافق عليه العقليون.

والواقع أنَّ العقلين حين يقررون: إنَّ تلك المبادئ ضرورية في

العقل البشري، يعنون بذلك: إنَّ الذهن إذا تصور المعاني التي تربط بينها تلك المباديء فهو يستبط المبدأ الأولي دون حاجة إلى سبب خارجي، ولنأخذ مبدأ عدم التناقض مثلاً، إنَّ هذا المبدأ - الذي يعني: الحكم التصديقي بأنَّ وجود الشيء وعده لا يجتمعان، ليس موجوداً عند الإنسان في لحظة وجوده الأولى؛ لأنَّه يتوقف على تصور الوجود، وتصور العدم، وتصور الاجتماع، وبدون تصور هذه الأمور لا يمكن التصديق بأنَّ الوجود والعدم لا يجتمعان؛ فإنَّ تصديق الإنسان بشيء لم يتصوره أمر غير معقول، وقد عرفنا عند محاولة تعليل التصورات الذهنية أنها ترجع جمِيعاً إلى الحس وتنبع عنـه بصورة مباشرة أو غير مباشرة، فيجب أن يكتسب الإنسان مجموعة التصورات التي يتوقف عليها مبدأ عدم التناقض عن طريق الحس، ليتاح له أن يحكم بهذا المبدأ ويصدق به، فتأخر ظهور هذا المبدأ في الذهن البشري، لا يعني: أنَّ ليس ضرورياً وليس منبثقاً عن صميم النفس الإنسانية بلا حاجة إلى سبب خارجي، بل هو ضروري ونابع عن النفس بصورة مستقلة عن التجربة، ولكن التصورات الخاصة شرائط وجوده وصدره عن النفس، وإذا شئت فقس النفس والمباديء الأولية بالنار وإحراقها، فكما أنَّ إحراق النار فعالية ذاتية للنار، ومع ذلك لا توجد هذه الفعالية إلا في ظلِّ شروط،

أي في ظروف ملاقة النار لجسم يابس، كذلك الأحكام الأولية؛ فانها فعاليات ضرورية وذاتية للنفس في الظروف التي تكتمل عندها التصورات الالزامية.

▣ الخلاصة

- القضايا الرياضية تتصرف باليقين المطلقاً، بخلاف القضايا الطبيعية التي تحتمل الصحة والخطأ.
- العقلائيون يفسرون صفة اليقين في القضايا الرياضية باعتمادها المباشر على المعلومات العقلية البديهية.
- لا يمكن التفريق بين القضايا الرياضية والطبيعية على أساس التجربة، لأن نسبة التجربة اليهما واحدة.
- تأخر حصول القضايا الضرورية في الذهن راجع إلى توقفها على تصور المعلومات الذهنية التي تربط بينها تلك القضايا البديهية.

▣ أسئلة

- ١ - بين الاتجاهين الرئيسيين في تحديد مقياس صحة المعرفة الإنسانية.

- ٢- مثل لكلٍ من القضايا الرياضية والقضايا الطبيعية.
- ٣- قارن بين القضية الرياضية والقضية الطبيعية من حيث اليقين بكلٍ منها.
- ٤- فرق بين القضية الرياضية والقضية الطبيعية من حيث عموم صدق كلٍ منها للخارج العالم الذي وقعت فيه.
- ٥- قارن بين القضية الرياضية والطبيعية من جهة تأثير تكرار التجارب في زيادة الاقتناع بكلٍ منها.
- ٦- بماذا يفسر أصحاب الطريقة العقلية صفة اليقين المطلق التي تمتاز بها المعلومات الرياضية عن المعلومات الطبيعية؟
- ٧- ماذا يتربّ على قول التجربيين: إنَّ كُلَّاً من القضايا الرياضية والتجريبية مأخوذة من التجربة؟
- ٨- ما معنى قول التجربيين: إنَّ قضايا الرياضيات تكرارية؟
- ٩- بين الدليل على أنَّ قضايا الرياضيات ليست كلها تكرارية.
- ١٠- علل تأخر ظهور المعلومات الضرورية في ذهن الإنسان.

- ## **البحث الخامس**
- ### **المدرسة الوضعية والفلسفة**
- **ما هي القضية ذات المعنى؟**

القضية ذات المعنى هي: القضية التي تعكس في ذهن الإنسان صورة معينة، فلو قال شخص: القمر طالع، عكست هذه الألفاظ في ذهنه صورة خاصة، ولهذا تكون قضية ذات معنى، فإذا كان القمر طالعاً بالفعل، كانت القضية صادقة، وإن ألا فهي كاذبة.
 - **تعريف الوضعيين للقضية ذات المعنى**

ولكن الفلسفه الوضعيين الذين هم امتداد للاحتجاه الحسني

والتجريبي،^(١) جاؤا بقاعدة جديدة لتمييز القضايا ذات المعنى عن غيرها، فقالوا: إن القضية ذات المعنى هي: القضية التي يمكن التأكد من صحتها وخطتها عن طريق الإحساس والتجربة، فإذا قيل مثلاً: (البرد يشتد في الشتاء) نجد أنَّ العالم الواقعي له صورة معينة في حال صدق هذا الكلام، وصورة أخرى مختلفة حال كذبه، ولأجل ذلك تكون القضية ذات معنى، أما القضية الفلسفية التي تقول: (إن لكل شيء جوهرًا غير ما ندركه منه بحواسنا، فلتتفاهم مثلاً جوهر هو التفاحة في حد ذاتها وراء ما نحسه منها بالبصر واللمس والذوق)، فإننا لا نجد فرقاً في الواقع حال صدق هذه القضية وكذبها، بدليل أننا إذا تصورنا التفاحة حال وجود جوهر لها غير ما ندركه منها بحواسنا، ثم تصورناها حال وجود هذا الجوهر، لم نر فرقاً بين الصورتين، وما دمنا لم نجد في الصورة التي رسمناها الحال الصدق شيئاً يميّزها عن الصورة التي رسمناها الحال الكذب، فالعبارة الفلسفية المذكورة كلام لا معنى له.

وبهذا يتحدد موقف المدرسة الوضعية من قضايا الفلسفة في نقطتين:

(١) ومن أبرزهم الفيلسوف آير، وبرتراند رسل.

أولاًهما: أنَّ القضية الفلسفية لا يمكن إثبات صحتها أو خطئها عن طريق الإحساس والتجربة.

والثانية: أنَّ القضية الفلسفية لا معنى لها، ولا يصح أن توصف بصدق أو كذب.

■ نقد الموقف الوضعي من القضية ذات المعنى

وبخصوص النقطة الأولى نسأل الوضعيين عن المعطيات الحسية والتجريبية التي يرتبط بها صدق القضية؛ فإن الدليل على القضية قد يكون مأخوذاً من الإحساس مباشرة، كما في قولنا: (البرد يستند في الشتاء)، وقد يكون مأخوذاً من الإحساس ولكن بصورة غير مباشرة. فإذا كان مرادهم إلغاء كل قضية إلا إذا كان دليلاً حسياً مباشراً، فهم بهذا لا يسقطون القضايا الفلسفية وحدها، بل يسقطون أكثر القضايا العلمية المأخوذة من الإحساس بصورة غير مباشرة، مثل قانون الجاذبية، فنحن نحس بسقوط الأشياء على الأرض، ولا نحس بجاذبية الأرض.

واما إذا اكتفوا بالمعطيات الحسية غير المباشرة، فلن لهم: إن القضايا الفلسفية تشبه عدداً من القضايا العلمية في هذا المجال؛ فمثلاً القضية

الفلسفية القائلة بوجود علة أولى للعالم، نتوصل إليها عن طريق المعطيات الحسيّة التي ندرك بواسطتها احتياج الموجودات إلى أسباب، والتي تُمكّن العقل من الوصول إلى اليقين بوجود علة أولى للعالم.

وأما النقطة الثانية القائلة: (إن القضية الفلسفية لا معنى لها)، فهي ترتبط بالمفهوم الجديد الذي يعطيه الوضعيون لكلمة (معنى)؛ فإن هذه الكلمة تدل في رأيهم على الشيء الذي يمكن التأكد من خطّه وصحته عن طريق الاحساس والتجربة، وعلى هذا يكون قولهم: القضية الفلسفية لا معنى لها، مساواً لقولنا: (القضية الفلسفية لا تخضع للتجربة)، وهذه حقيقة لا شك فيها؛ لأنَّ القضايا الفلسفية تتعلق بموضوعات غير مادِّية، والتجربة والحواس لا تقع الآ على الأشياء المادِّية، ولكن هذا لا يعني: أن القضايا الفلسفية لا يمكن التأكد من صحتها إطلاقاً؛ فإن التجربة ليست هي المقياس الوحيد لمعرفة صحة القضايا؛ إذ باستطاعتنا أن نتأكد من صحة القضية الفلسفية بالاستعانة بالمعلومات العقلية البديهية السابقة على التجربة.

وإذا كانت القاعدة الوضعية صحيحة، فيجب على الوضعيين أن يرفضوا كثيراً من القضايا التي تتصل بعالم الطبيعة، وليس بوسع الإنسان أن يتأكد من صحتها أو خطّها بالاحساس والتجربة، فمثلاً القضية

القائلة: (إن الوجه الآخر للقمر الذي لا يقابل الأرض مملوء بالجبال) هي قضية لا يمكن للتجربة أن تكشف عن صدقها أو كذبها، على الرغم من أنها تتحدث عن الطبيعة، فهل نعتبر هذه القضية لا معنى لها؟ وكذلك الحال في عشرات ومئات من القضايا المماثلة.

□ عدم ارتباط صدق القضية وكذبها بالتجربة

الصحيح هو ما ذكرناه من تعريف المعنى بأنه: ما يعكسه اللفظ في الذهن من صور، والقضية الفلسفية تعكس صوراً في أذهان انصارها وخصومها على السواء، ومادامت هناك صورة ذهنية تعكسها القضية الفلسفية، فهناك مجال للصدق والكذب؛ لأن الصورة الذهنية إن كانت تطابق شيئاً موضوعياً خارج حدود الذهن فالقضية صادقة، والأفهي كاذبة.

والصدق والكذب في القضايا عموماً ليسا مرتبطين بالتجربة، لنقول عن القضية التي لا تخضع للتجربة: إنها لا يمكن أن توصف بصدق أو كذب، بل هما تعبيران عن التطابق بين صورة القضية في الذهن، وبين شيء ثابت في الواقع خارج حدود الذهن، وهذه المطابقة قد نستطيع إثباتها بالإحساس والتجربة، وقد نثبتها بالمعلومات العقلية البدائية.

▣ الخلاصة

- القضية ذات المعنى هي: القضية التي تعكس صورة في الذهن.
- تكون القضية صادقة اذا كانت صورتها الذهنية تطابق واقعاً موضوعياً خارج الذهن، والا فهي كاذبة.
- القضايا الفلسفية يمكن التأكد من صحتها وخطئها عن طريق المعلومات العقلية البدائية، والمعطيات الحسية غير المباشرة.

▣ أسئلة

- ١- متى تكون القضية ذات معنى؟
- ٢- بين رأي الفلاسفة الوضعيين في القضية ذات المعنى.
- ٣- لماذا اعتبر الوضعيون القضية القائلة: (لكل شيء جوهر غير ما ندركه منه بحواسنا) قضية غير ذات معنى؟
- ٤- بماذا يتحدد موقف المدرسة الوضعية من قضايا الفلسفة؟
- ٥- لماذا يترتب على القول بأنَّ صدق القضية يتوقف على إمكان إثباتها بالدليل الحسي المباشر؟
- ٦- عِرِفْ القضية الفلسفية الصادقة، والقضية الكاذبة.

البحث السادس

حقيقة الإدراك

■ رأيان في حقيقة الإدراك

الإدراك والعلم لفظان متراوكان، ومعناهما: وجود صورة الشيء في الذهن.

وهناك رأيان فلسفيان في بيان حقيقة الإدراك.

الأول: أنَّ الإدراك ظاهرة مادية.

الثاني: أنَّ الإدراك ظاهرة مجردة عن المادة.

ونحن نعلم أنَّ الحواس الخمس هي المصدر الأولى لتزويد الإنسان بالصور والمدركات الذهنية، فلنأخذ الإدراك العقلي للصورة الواردة إلى الذهن عن طريق حاسة البصر، لنعرف أيِّ الرأيين السابقين يقدم التفسير

الصحيح لحقيقة الإدراك.

■ الصورة الذهنية: خصائصها الهندسية، وثباتها

إن ادراكنا للصورة المبصرة تتضح فيه ظاهرتان :

أولاًهما: الخصائص الهندسية للصورة المدرَّكة.

والثانية: ظاهرة الثبات في عملية الإدراك البصري.

اما الظاهرة الأولى فهي: أن الصورة التي ترسم في الذهن عن طريق حاسة البصر، تحتوي على الخصائص الهندسية من الطول والعرض والعمق. فلنفترض أننا زرنا حديقة واسعة، فاننا نستطيع بنظرة واحدة ان نأخذ عنها صورة كاملة، بمختلف أبعادها وأنواع الاشجار والازهار فيها.

والأسئلة التي نطرحها بشأن هذه الصورة هي :

- ما حقيقة هذه الصورة التي ندركها؟ هل هي نفس الحديقة الموجودة خارج الذهن؟ أم هي صورة مادية توجد في عضو خاص في جهازنا العصبي؟ أم هي صورة مجردة عن المادة تماثل الواقع الخارجي؟

□ الصورة المدركة صورة لا مادية

ومن الواضح: أن الصورة الموجودة في الذهن ليست هي الحديقة الواقعها الخارجي، فلا يبقى إلا الافتراضان الآخرين.

أما الافتراض الثاني القائل: إن هذه الصورة ظاهرة مادية قائمة ببعض الإدراك في الجهاز العصبي، فليس صحيحاً؛ وذلك لأن الصورة المدركة بحجمها وخصائصها الهندسية وامتدادها طولاً وعرضأً، لا يمكن أن توجد في عضو مادي صغير كالملح؛ فكما أن الحديقة لا يمكن أن نطبع لها صورة فوتografية مساوية لها في السعة والشكل والامتداد على ورقة مسطحة صغيرة، كذلك لا يمكن أن نأخذ عنها صورة عقلية أو إدراكية تماثلها في سعتها على جزء صغير من الملح؛ لأنَّ انطباع الشيء الكبير على الشيء الصغير مستحيل.

وعليه لا يبقى سوى الافتراض الثالث، وهو: أن الصورة المدركة هي صورة لا مادية، أي: أنها وجود مجرد عن المادة، ولا بد أن يكون محلها لا مادياً أيضاً.

□ معنى ثبات الصورة المدركة

وأما الظاهرة الثانية فهي: ظاهرة الثبات في الصورة المدركة، وأنَّها لا

تتغير تبعاً للتغيرات الصورة المنعكسة على الجهاز العصبي، فلو وضعنا قلماً على بعد متر واحد منا، فسوف تتعكس منه صورة ضوئية خاصة، وإذا ضاعفنا المسافة التي تفصلنا عنه، فإن الصورة المنعكسة منه سوف تقل إلى نصف ما كانت عليه في الحالة الأولى، مع أن ادراكتنا العقلي لحجم القلم يبقى ثابتاً، أي: أن الصورة الذهنية للقلم تبقى ثابتة رغم تغير الصورة المادية المنعكسة على الدماغ، وهذا دليل على أن الصورة المدركة ليست شيئاً مادياً، وأن الإدراك يختلف في القوانين عن الصورة المادية المنعكسة على العضو المادي، وأنه يمتلك من الخصائص الهندسية ومن الثبات ما لا يوجد في أي صورة مادية منعكسة على الدماغ.

□ الادراك والجانب اللامادي من الإنسان

وبهذا يتضح: أن الحياة العقلية بما تزخر به من إدراكات وصور هي لون من ألوان الوجود مغاير للمادة وخصائصها، وهنا نسأل: إن الإدراكات والصور التي تتكون منها حياتنا العقلية إذا لم تكن صوراً موجودة في عضو مادي، فأين هي موجودة إذن؟

والجواب: إنها موجودة في الجانب اللامادي من الإنسان؛ فان

الإنسان مكون من جانب مادي هو الجسد، وجانب مجرد عن المادة وهو الروح، فالجانب العقلي للإنسان ليس شيئاً مادياً كالدماغ، بل هو نوع من الوجود مجرد عن المادة.

ولكي يتضح الدليل على ذلك نقول: إن هناك ثلاثة افتراضات:

الأول: أنَّ الإدراك صورة مادية موجودة في الجهاز العصبي، وهذا ما ثبت لدينا عدم صحته.

الثاني: أنَّ الإدراك صورة مجردة عن المادة، وهي موجودة بمنحو مستقل عن وجودنا، وهذا الافتراض غير صحيح؛ لأنَّ الإدراكات إذا كانت موجودة بصورة مستقلة عنا، كيف تكون إدراكات لنا؟

الثالث: وهو الافتراض الصحيح: أنَّ الإدراكات والصور العقلية هي أمور مجردة عن المادة، ولكنها ليست مستقلة في وجودها عن الإنسان، بل هي موجودة في الجانب اللامادي من الإنسان.

إنَّ الحواس والمخ ما هي إلا وسائل لنقل الصور إلى النفس اللامادية (الروحية)، فالنفس هي التي تدرك وتفكر، ولا تقوم الأعضاء المادية إلا بتوفير الشروط التي يتطلبهما الإدراك، وذلك لوجود الصلة القوية بين الجانب الروحي والجانب المادي من الإنسان.

▣ الخلاصة

- الإدراك صورة ذهنية مجردة عن المادة.
- الإدراكات ليست مستقلة في وجودها عن الإنسان، كما أنها ليست موجودة في الأعضاء المادية للإنسان، وإنما هي موجودة في الجانب الروحي المجرد من الإنسان.
- الحواس الخمس والمخ كلها وسائل لنقل الإدراكات إلى النفس اللامادية.

▣ أسئلة

- ١- اذكر الرأيين المطروحين في بيان حقيقة الإدراك.
- ٢- هناك ظاهرتان تتضمنان في إدراك الصورة المبصرة، بين هاتين الظاهرتين.
- ٣- ما هو الدليل على أنَّ إدراكنا البصري، ليس صورة مادية قائمة ببعضو الإدراك في الجهاز العصبي؟
- ٤- ما هو الصحيح في حقيقة إدراكنا للصورة المبصرة؟
- ٥- ما هو المراد بظاهرة الثبات في الصورة المدركة؟
- ٦- ما هو الدليل على ثبات الصورة الذهنية، رغم تغير الصورة

المادية المنعكسة على الدماغ؟

٧- إذا لم يكن الإدراك صورة مادية قائمة في عضو مادي، فأين هو موجود إذن؟

٨- ما هو الدليل على خطأ القول بأنَّ الإدراك صورة موجودة بنحوٍ مستقل عن وجودنا؟

٩- إذا كانت النفس اللامادية (الروح) هي التي تدرك الأشياء، فما هي وظيفة الأعضاء المادية (كالملحُّ والحواسِ) في عملية الإدراك؟

البحث السابع

تطور المعرفة

■ معنى تطور المعرفة

يتافق الفلاسفة المسلمين مع غيرهم على وجود التطور في المعرفة الإنسانية، وإن كانوا يختلفون مع بعض الفلاسفة في حقيقة هذا التطور. ويتلخص مفهوم المسلمين عن تطور المعرفة في أنَّ معلومات الإنسان تتکاثر وتزداد على مرِّ الزمن.

وهناك مفهوم آخر لتطور المعرفة طرحته فلاسفة الماركسيون حاصله: أنَّ الفكرة الواحدة تنمو وتطور داخل الذهن، بمعنى: أنَّ الصورة الذهنية التي نأخذها عن واقع خارجيٍّ معين، لا تظل ثابتة كما هي، بل يعتريها التغيير والتبدل.

وانما طرح الماركسيون هذا المفهوم: لأنّهم ذهبوا إلى أنَّ قانون الحركة ينطبق على العالم الخارجي، وعلى الفكر البشري بنحو واحد، فكما يتطوّر الواقع الخارجي للمادة، كذلك تخضع الحقائق والإدراكات لنفس قوانين التطور والنمو، وعليه فليس في مجال الفكر حقائق مطلقة وثابتة، بل إنَّ الاعتقاد بالحقائق المطلقة يؤدّي إلى القول بجمود الطبيعة وسكونها.

وأما الفلاسفة المسلمين فإنّهم يرون: أنَّ قانون الحركة يسري في عالم المادة والطبيعة فقط، ولا يشمل الفكر والمعرفة، وأنَّ نمو المعرفة معناه: زيادة المعلومات وتکاثرها، لا أنَّ الفكرة الواحدة المأخوذة عن واقع معين تنمو وتطور إلى شيء آخر، ويرون: أن ثبات الأفكار لا يستلزم القول بجمود الطبيعة، وأنَّ الاعتقاد بأنَّ الوجود الخارجي في حركة وصيروة مستمرة، لا يؤدّي إلى القول بتغيير الأفكار ورفض الحقائق المطلقة.

فلو نظرنا إلى شيء متتحرك في الخارج، وأخذنا صورة عنه في بداية تحركه، ثم أغمضنا أعيننا، فان الصورة المأخوذة لذلك الشيء لا يمكن أن تنمو وتتغيّر، وتجعلنا نتصوّر ذلك الشيء في مراحل حركته التالية، بل لابد إذا أردنا إدراك بقية مراحل الحركة من متابعة النظر إلى ذلك

الشيء؛ لذا نأخذ له صوراً متعددة تمثله في مختلف مراحل حركته، وكل من هذه الصور تظل ثابتة ومنتقبة على المرحلة الخاصة بها من مراحل حركة الشيء.

ولنضرب لذلك مثلاً بالزهرة التي تبدأ بالتفتح تدريجياً حتى يكتمل تفتحها، ثم تبدأ بالذبول وتساقط أوراقها، فلابد من مراقبتها في أوقات مختلفة، إذا أردنا أن نتصورها في جميع مراحل تطورها، ابتداءً من تفتحها حتى تساقط أوراقها، ولا نكتفي بالصورة المأخوذة في بداية التفتح؛ لأن هذه الصورة تظل ثابتة، ولا يمكن أن تتطور فتذبل وتساقط أوراقها، كما يحصل للزهرة في الواقع.

■ مناقشة أدلة المفهوم الماركسي لتطور المعرفة

وستعرض فيما يلي لإيراد مناقشة أهم الأدلة التي طرحتها الماركسيون لإثبات تطور الأفكار وحركتها.

الدليل الأول: أن الفكر هو انعكاس للواقع الخارجي، ولما كان هذا الواقع متغيراً، فلابد أن يكون الفكر كذلك، وعليه فليس في الفكر الإنساني حقائق ثابتة ومطلقة، بل الحقائق نسبية دائماً، وما يكون حقيقة

في وقت، يكون بنفسه خطأً في وقت آخر، وهذه النسبة والتطورات في الحقيقة، هي انعكاس لتطورات الواقع الذي نتمثله في أفكارنا. ويناقش بأنه لا شك في أنَّ الفكر يصور الواقع الموضوعي، ولكن هذا لا يعني: أنَّ تعكس في الفكر حركة هذا الواقع، فيتحرك وينمو تبعاً له وذلك لدللين:

الأول: أنَّ عالم الطبيعة يحتوي حتماً على قوانين عامة ثابتة، وهذا ما لا ينكره حتى القائلون بحركة الفكر وتطوره؛ فإنهم يعترفون أيضاً بعده قوانين تحكم الطبيعة بصورة ثابتة، ومنها (قانون الحركة). وعليه، فإن اعتبروا قانون الحركة ثابتاً ودائماً، فقد أقرّوا بوجود الفكر الثابتة التي لا يعترفها التبدل، وإن قالوا: إنَّ هذا القانون متغير أيضاً، فمعنىَه: أنَّ الحركة ليست دائمة، وأنَّها قد تتبدل إلى ثبات، فتكون الحقائق ثابتة بعد أن كانت متحركة متطرفة، وهذا اعتراف بوجود الحقيقة الثابتة.

الثاني: أنَّ الإدراك لا يعكس الخصائص الواقعية للطبيعة؛ لأنَّ الصورة الذهنية المأخوذة عن الشيء، تختلف عن واقع الشيء الخارجي في الوجود والخصائص؛ فالفكرة العلمية الدقيقة التي يأخذها العالم عن الميكروب وتركيبه وتفاعلاته مع جسم الإنسان، لا توجد

فيها خصائص الميكروب الخارجي، ولا يمكنها أن تؤثر نفس تأثيره. وبهذا يتضح: أن خواص الواقع الموضوعي لا توجد في الفكرة المأخوذة عنه، ومن تلك الخواص (الحركة)، فهي من خواص المادة وقوانينها الثابتة، لكنها لا توجد في الصورة الذهنية المأخوذة للمادة والطبيعة.

وهذا لا يعني: أننا إذا كونا مفهوماً عن الطبيعة في إحدى مراحلها، جمدنا أفكارنا، واعتبرنا بذلك المفهوم وحده كافياً لمعرفة أسرار الطبيعة في جميع مراحلها، ذلك أننا نؤمن بأن الطبيعة متطرفة، ونرى من الضروري دراستها في كل طور من أطوار حركتها، وتكون مفهوم عنه، وإنما الذي نرفضه هو وجود حركة في كل مفهوم ذهني على حده. إن الفكر يعكس الواقع كما يعكس الشريط السينمائي ألوان الحركة والنشاط، بالتقاط عدد من الصور المتلاحقة، فليست الصورة الأولى هي التي تتحرك، بل التتابع بين مجموع الصور هو الذي يشكل الحركة.

الدليل الثاني: أن الإدراك ظاهرة من ظواهر الطبيعة، ونتاج عالي للمادة، فهو محكوم بنفس القوانين التي تسيطر على الطبيعة، فيتحرك وينمو كما تنمو جميع ظواهر الطبيعة.

فالدليل الأول كان يبرهن على وجود الحركة في الفكر عن طريق كونه انعكاساً للواقع المتحرك، أما هذا الدليل فإنه يثبت الحركة في الفكر باعتباره جزءاً من الطبيعة، التي يحكمها قانون الحركة، فالحركة متحركة ومتغيرة، لأنها تعكس واقعاً متغيراً فحسب، بل لأنها بذاتها جزء من العالم المتغير.

ويلاحظ على هذا الدليل:

أولاً: أنه يرتكز على التفسير المادي للإدراك، الذي يفرض اشتراكه مع الطبيعة في جميع قوانينها، بما فيها قانون الحركة، ولكننا أوضحتنا في مبحث (حقيقة الإدراك) أن الفكر ليس ظاهرة مادية.

ثانياً: أنا نتساءل: هل التفسير المادي للفكر يختص بأفكار أصحاب هذا الدليل من الماركسيين القائلين بحركة الفكر وتطوره، أم يشمل أيضاً أفكار غيرهم ممن لا يقول بذلك؟ فإن كان يعم جميع الأفكار، لم يكن من حق الماركسيين أن يتهموا المخالفين لهم من الإلهيين بالجمود الفكري، ويرروا أن أفكارهم وحدها هي النامية المتغيرة؛ فان الأفكار البشرية جموعاً -في المفهوم المادي- هي نتاج الطبيعة، وكل ما في الأمر أن الإلهيين، لا يؤمنون بتطور الفكر وحركتها، ولكن الإيمان بقانون من قوانين الطبيعة ليس شرطاً من شرائط وجوده: فإن جسم (باستور)

المكتشف للميكروب، وجسم (ابن سينا) الذي لم يكن يعرف عن الميكروب شيئاً، يشتراكان معاً في التفاعل مع ذلك الميكروب، طبقاً لقوانين الطبيعة، فإذا كان التطور قانوناً طبيعياً يشمل المادة والفكر معاً، لم يكن من حق الماديين الماركسيين ادعاء صفة التطور لفكرهم وحده، واتهام بقية الأفكار المخالفة لهم بالثبات والجمود.

الدليل الثالث: ادعاء أن التطور والتكميل العلمي دليل على تطور الفكر، وأن تاريخ العلوم هو تاريخ الحركة والنمو في الفكر البشري. ولكن الواقع أنَّ التطور العلمي ليس معناه: أنَّ الفكرة العلمية تنمو وتتكامل، بل معناه: أنَّ حقائق العلم تزيد وتتكاثر.

▣ فكرة عن سير التطور العلمي

ولابد من إعطاء فكرة عن سير التطور العلمي، وأسلوب التكميل في النظريات العلمية، ليتضح الفرق بين حركة الفكر المزعومة، والتطور التاريخي للعلوم.

إنَّ الحقيقة العلمية تبدأ بشكل فرضية تخطر على ذهن العالم؛ بسبب عدد من المعلومات السابقة والمشاهدات العلمية، ثم يبدأ العالم دراسة

تجريبية، وبحثاً علمياً بشأن تلك الفرضية، فإذا جاءت نتائج البحث والتجارب مؤيدة للفرضية، اكتسبت طابع القانون العلمي، وانتقال الفرضية إلى مرحلة القانون ليس معناه: أن تلك الفكرة أخذت بالنمو والحركة، بل معناه: أن الفكرة كانت مشكوكاً فيها، فبلغت درجة الوثوق واليقين العلمي.

وبعد أن تتحل الفرضية موقعها من القوانين العلمية، تأخذ مجالها في التطبيق، فإن حالفها النجاح على طول الخط، ثبتت نهائياً، وإن بدأت تضيق عن الانطباق على الواقع المدروس علمياً، دخلت مرحلة التعديل، وفي هذه المرحلة إما أن تفرض التجارب والمشاهدات تكميل النظرية بمفاهيم جديدة، وأما أن تكشف الدلائل العلمية عن خطئها، فتنهار، ويُعرض عنها بنظرية أخرى في ضوء التجارب والمشاهدات، وفي كل ذلك لا تنمو الفكرة العلمية وتتحرك، بل إن ما يحدث في مجال التعديل العلمي هو اكتشاف حقائق جديدة تضاف إلى الحقيقة العلمية الثابتة، أو اكتشاف خطأ النظرية السابقة، وصحة فكرة أخرى لتفسير الواقع.

وأخيراً يجب الالتفات إلى ملاحظتين:

الأولى: قانون الحركة وأقواءِ الحقيقة

إن تطبيق قانون الحركة على الحقائق يعني: أن الفكرة الواحدة تصبح بالحركة حقيقة أقوى، كما أن الحرارة ترتفع بالحركة إلى درجة أكبر، مع أننا ندرك اختلاف الحقيقة عن الحرارة؛ لأن الحرارة يمكن أن تشتد وتقوى، أما الحقيقة فهي - كما نعلم - الفكرة المطابقة للواقع، ولا يمكن أن تقوى مطابقة الفكر للواقع وتشتد، وإنما يجوز أن ينكشف للفكر جانب جديد من ذلك الواقع لم يكن معلوماً قبل ذلك، وهذا ليس تطوراً للحقيقة المعلومة سابقاً، وإنما هو حقيقة جديدة تضاف إلى الحقيقة السابقة.

الثانية: الهدف من إخضاع الحقيقة لقانون الحركة

إن الفلسفه الماركسيين يصرّون على إخضاع الحقيقة لقانون الحركة؛ لكي يقضوا على الحقائق المطلقة التي تؤمن بها الفلسفه الإلهية، وقد غاب عنهم أنهم يقضون بهذه الطريقة على رأيهم الخاص أيضاً؛ لأن الحركة اذا كانت قانوناً عاماً يحكم الحقائق جميعاً، فسوف يتذرّع إثباتات أية حقيقة مطلقة، وهذا يؤدي إلى سقوط (قانون الحركة) أيضاً عن كونه حقيقة مطلقة.

وبتعبير آخر: إن الماركسية تنفي وجود الحقيقة المطلقة بحجج أن الطبيعة متغيرة باستمرار، وتقدم بذلك قاعدة مفادها: (إن المعرفة متغيرة وغير مطلقة)، ومع ذلك ت يريد منها أن تؤمن بأن هذه القاعدة حقيقة مطلقة. فإذا صحت دعوى الماركسية، كانت صحة هذه القاعدة غير مطلقة أيضاً وأبطلت القاعدة نفسها، وإذا اعترفت الماركسية بوجود بعض الحقائق المطلقة، خالفت بذلك نظريتها.

▣ الخلاصة

- معنى تطور المعرفة: أن معلومات الإنسان تتکاثر وتزداد باستمرار.
- الماركسية تؤكد قانون (حركة الحقيقة) وترى: أن تطور المعرفة معناه نمو الفكر الواحدة وتغييرها داخل الذهن، وهذا الرأي غير صحيح: لأنه يؤدي إلى إنكار الحقائق المطلقة، ومنها قانون (حركة الحقيقة) نفسه.
- فكرة الشيء لا تملك جميع خصائصه الواقعية، فالصورة الذهنية للنار ليست محرقة، وصورة الشيء المتحرك لا تتحرك في الذهن، كما يتحرك الشيء في الواقع.

■ أسئلة

- ١ - بين الفرق بين تطور المعرفة في رأي الفلاسفة المسلمين وتطورها في رأي الماركسيين.
- ٢ - قارن بين رأي الماركسيين ورأي الفلاسفة المسلمين بشأن المجال الذي يجري فيه قانون الحركة.
- ٣ - هات مثالاً يوضح أن الفكرة الواحدة للشيء المتحرك، لا يمكن أن تنمو وتطور، لتجعلنا نتصور ذلك الشيء في مراحل حركته التالية.
- ٤ - ما معنى قول الماركسيين: إن الحقائق نسبية دائمًا؟
- ٥ - استدل على حركة الفكر بكونه انعكاساً للواقع الخارجي المتحرك، فكيف ترد هذا الاستدلال؟
- ٦ - ما معنى قولنا: إن الإدراك لا يعكس الخصائص الواقعية للطبيعة؟
- ٧ - ما معنى القول بأن الفكر يعكس الواقع كما يعكس الشريط السينمائي ألوان الحركة؟
- ٨ - قال الماركسيون: الإدراك ظاهرة من ظواهر الطبيعة، فلا بد أن يخضع لقوانينها التي منها الحركة. اذكر الرد على هذا القول.
- ٩ - بين المفارقة في ادعاء الماركسيين أنَّ فكرهم يتسم بالتطور.

وفكر المخالفين لهم من الإلهيين يتسم بالجمود.

- ١٠ - ادعى الماركسيون: أنَّ التطور والتكميل العلمي دليل على نمو الفكر وحركته، فكيف تبطل هذه الدعوى؟
- ١١ - ما هو الهدف من إصرار الماركسيين على دعوى خضوع الحقيقة لقانون الحركة؟ وماذا يتربّ على هذه الدعوى؟

البحث الثامن

الوجود الخارجي والوجود الذهني

■ الفرق بين الوجود الخارجي والذهني

لأشياء وجودان حقيقيان:

أولهما: الوجود الخارجي، كوجود الإنسان والحيوان والنبات والكواكب.

وثانيهما: الوجود الذهني، وهو وجود صورة الشيء في الذهن. والفرق بين هذين الوجودين: أن الوجود الذهني للشيء لا يملك نفس الخصائص التي يتصف بها وجوده الخارجي؛ فإن الصورة الذهنية للشجرة لا تملك خاصية النمو، والصورة الذهنية للنار ليست محرقة ولا منيرة.

▣ وجود العالم ككل، ووجود الأشياء الجزئية

إن الاعتقاد بوجود العالم ككل خارج الذهن، هو اعتقاد بدبيهي لدى كل إنسان.

واما الاعتقاد بالوجود الخارجي للأشياء الجزئية، أي لهذا الشيء أو ذاك، فإنه يثبت على أساس مبدأ العلية القائل: إن لكل شيء سبباً؛ فإن وجود صورة لشيء معين في الذهن، يكشف عن وجود علة خارجية لها.

وان الإنسان قد يحس بأشياء معينة في حالات المرض، ولا يعتقد بأن لها وجوداً في الواقع؛ لإمكان تعليل الاحساس بالحالة المرضية، أما في الحالات الاعتيادية، فلا يمكن تفسير وجود الصورة في الذهن إلا بأنها انعكاس للواقع الخارجي الذي كان سبباً لوجودها في الذهن.

▣ مناقشة أدلة المثاليين على نفي الوجود الخارجي

قلنا: إن وجود العالم خارج الذهن واضح وبديهي، إلا أن بعض الفلاسفة وهم المثاليون شكوا في هذه القضية الواضحة، وزعموا أن الوجود منحصر في الذهن فقط، وأن التصورات الذهنية لا تعكس واقعاً خارج الذهن.

وسوف نستعرض بعض الأدلة التي تقدم بها المثاليون وحاولوا بها
نفي الوجود الخارجي للأشياء^(١).

الدليل الأول: أنَّ الصورة الذهنية تنطبع في الذهن عن طريق
الحواس، والحواس مملوءة بالتناقضات، ولا تثبت لنا وجوداً خارج
الذهن، فحاسة البصر تدرك الأشياء البعيدة صغيرة الحجم، فاذا اقتربت
ادركتها بحجم أكبر، وحاسة اللمس قد تزودنا بإدراكيين مختلفين عن
شيء واحد، فلو وضع إنسان احدى يديه في ماء حار، والأخرى في ماء
بارد، ثم وضعهما بعد ذلك في ماء دافئ، فان الماء يكون بارداً لليد
الحار، وحاراً لليد الباردة، وهذا دليل على أن الماء ليس له وجود
خارجي مستقل عن وجودنا، بل الماء هو أسم نطلقه على صورة ذهنية
نحسها.

ويمكن بيان خطأ هذا الدليل في نقطتين:

الأولى: إنَّ تصورات الإنسان ليست كلها ناشئة عن طريق الحواس؛
فإن هناك تصورات بدائية يدركها العقل مباشرة بمعزل عن الحواس،

(١) وقد طرح هذه الأدلة الفيلسوف جورج باركلي.

وهذا النوع من التصورات ليس فيه شيء من التناقض، فهو صالح لأن يكون دليلاً على وجود الواقع الخارجي.

الثانية: إن تناقض الإحساسات ليس دليلاً على عدم وجود واقع خارج الذهن، بل إنه يدل فقط على أن الصورة الذهنية للشيء لا تطابق وجوده الخارجي مطابقة تامة، وهذا صحيح؛ لأن الإحساس هو انفعال ذات الإنسان بالشيء، فهو لا يتجرد عن الناحية الذاتية، فحين نضع يدينا في الماء، فتحسّ احدهما بالحرارة والأخر بالبرودة، نعلم بأنه لابد من وجود شيء خارج الذهن كان سبباً في حصول هذين الإحساسين ونستطيع أن نحكم بأن الماء دافئ، ونفتر تناقض الإحساسين بسبب الناحية الذاتية التي يضيفها الإنسان إلى الأشياء حين يدركها.

الدليل الثاني: أن الاعتراف بالوجود الخارجي للأشياء يتوقف على الاتصال بها مباشرة، وهذا غير متحقق؛ لأن الذهن يتصل مباشرة بالأفكار أو الصور الذهنية فقط، فلا وجود إذن إلا لهذه الأفكار.

وهذا الدليل إذا صح فانه سيؤدي إلى عزلة الإنسان عن الآخرين؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يتصل بإدراك الآخرين، ولا بأشخاصهم، ولا بالطبيعة كلها، وعليه، فإن حصر الوجود بالأشياء التي يتصل بها الذهن

مباشرة سيفرض على الإنسان عزلة تامة عما حوله، ولاشك أن صاحب هذا الدليل، لا يستطيع أن يندفع مع دليله الى هذا الحد، والأفمع من كان

يتحدث، ولمن كان يكتب ويؤلف ويلقي الدروس؟

صحيح أنَّ الإنسان لا يتصل مباشرةً إلا بالصور الذهنية، ولكن هذا ليس دليلاً على عدم القدرة على إثبات الوجود الخارجي الذي تعكسه تلك الصور الذهنية؛ ذلك لأنَّ مبدأ العلية، وهو من المبادئ العقلية البدوية يجعلنا نفتتن بوجود الواقع الخارجي، بوصفه سبباً لوجود تلك الصور الحاصلة في الذهن.

الدليل الثالث: إنَّ ادراكات الإنسان ليست كلها صحيحة؛ لأنَّ كثيراً من المعلومات والأحكام هي ادراكات خاطئة لا تكشف عن شيء من الواقع، وهذا يدعو إلى الشك فيها جميعاً، وعدم الاعتماد عليها في الكشف عن الوجود الخارجي.

وهذا الدليل إنما يكون صحيحاً إذا كان الإنسان لا يمتلك معلومات مضمونة الصحة بصورة بدويَّة؛ لأنَّ الشك في كشف المعلومات عن الواقع الخارجي سيكون وارداً، مادامت جميع المعلومات معرَّضة للخطأ، ولكننا نعلم أنَّ المعارف البشرية نوعان:

أولهما: معارف بديهية مضمونة الصحة، وهي القاعدة الأساسية للتفكير.

والثاني: معارف نظرية تستخرج من تلك القاعدة، وهي تحتمل الصحة والخطأ.

وإذا ثبت وجود معلومات مضمونة الصدق في الذهن الإنساني، فلا شك في أنَّ من تلك المعلومات معرفتنا بوجود العالم الخارجي المستقل عنَّا؛ فان العقل مضطرب إلى التصديق بوجود العالم على وجه العموم، مهما وقع من مفارقات بين الحس والواقع.

▣ الخلاصة

- العلم بوجود العالم ككل بديهي لا يحتاج إلى دليل.
- الاعتقاد بالوجود الخارجي للأشياء الجزئية يقوم على أساس مبدأ العلية القائل: لكل شيء سبب.
- الوجود الذهني للشيء لا يملك الخصائص التي يملكونها وجوده الخارجي.
- الوجود الذهني لا يطابق الوجود الخارجي مطابقة تامة، بسبب تدخل الذات الإنسانية في تكوين الصورة الذهنية.

□ أسئلة

- ١- للأشياء وجودان حقيقيان: خارجي وذهني، اذكر الفرق بين هذين الوجودين.
- ٢- كيف تثبت الوجود الخارجي لما تتصوره من الأشياء الجزئية؟
- ٣- ما الذي زعمه المثاليون بشأن وجود العالم ككل خارج الذهن؟
- ٤- علام يدل تناقض الإحساسات في رأي المثاليين؟
- ٥- ما هو الصحيح في دلالة تناقض الإحساسات؟
- ٦- ما هو السبب في عدم مطابقة الصورة الذهنية للوجود الخارجي مطابقة تامة؟
- ٧- قيل: إن الاعتراف بالوجود الخارجي يتوقف على الإحساس به مباشرة، وهذا غير متحقق، بين ما يؤدي إليه هذا القول على فرض صحته.
- ٨- صحيح أننا لا نحصل مباشرة إلا بالصور الذهنية، فكيف يمكننا إثبات الوجود الخارجي الذي تعكسه تلك الصور الذهنية؟
- ٩- قيل: كثير من الإدراكات خاطئة لا تكشف عن شيء من الواقع، مما يدعو إلى الشك فيها جميماً، وعدم الاعتماد عليها في الكشف عن الوجود الخارجي، بين الرد على هذا القول.

البحث التاسع

حقيقة الوجود الخارجي

▣ خطأ المفهوم المادي

كان علماء الفيزياء - قديماً - يعتقدون بلزم الصفة المادية للعالم الخارجي، ويقولون: إن جميع ما في الكون يتكون من أجزاء صغيرة لا تقبل التغيير ولا الإنقسام وهي الذرّات.

ولكن الاكتشافات الحديثة في مجال الفيزياء برهنت على خطأ المفهوم المادي ، وأثبتت أن الذرة قابلة للإنقسام؛ لأنها مركبة من أجزاء أدق منها هي: الالكترونات والبروتونات والنيوترونات.

وثبت أيضاً أن المادة في الحقيقة طاقة متکاثفة، وتبين أن قانون حفظ المادة القائل: (إن المادة لا تفنى) ليس صحيحاً؛ فقد أصبح من الممكن

تحليل الذرة الى طاقة ، فتزول عنها الصفة المادية، مثلما يتحلل الماء الى أوكسجين وهيدروجين.

وبذا واضحاً لعلماء الفيزياء، أن المفهوم المادي للعالم يتعارض مع العلم والبراهين التجريبية، فاتجه بعضهم نحو المثالية، وأنكر الوجود الخارجي، وقال: مادام العلم قد بين خطأ المفهوم المادي للعالم، فهذا دليل على أن الذرات أو الوحدات الأساسية للمادة، ما هي إلا صوراً ذهنية لا تعكس وجوداً واقعياً خارج الذهن.

▣ كشف الفيزياء والواقع الخارجي

والواقع أن كشف الفيزياء لا تؤدي الى إنكار الوجود الخارجي، ولا تدفع للاتجاه نحو المثالية، بل تؤدي الى تصحيح النظرة الى طبيعة الواقع الخارجي.

إن الاتجاه نحو المثالية في مجال الفيزياء ناتج عن خطأ في النظرة الى الوجود الخارجي؛ فان أصحاب هذا الاتجاه لم يدركوا المسألة الأساسية التي انقسم الفلسفه في الجواب عنها الى واقعيين يؤمنون بالوجود الخارجي، ومثاليين يحصرون الوجود بالعقل والصور الذهنية، فاعتقدوا بأن هذه المسألة لها جوابان فقط :

الأول: أن الوجود منحصر بالصور الذهنية.

الثاني: أن الوجود واقع مادياً موجود خارج الذهن.

ولما كانت التجارب العلمية قد أثبتت أن الصفة المادية ليست مفهوماً علمياً مطابقاً للواقع، فلابد من الاعتقاد بالمفهوم المثالي الذي ينكر الواقع الخارجي، وقد غاب عنهم أن هناك نوعين للوجود الخارجي :

الأول: الوجود المادي، وهو الذي يمكن إدراكه بالحواس الخمس ويشغل حيزاً من الفراغ، كوجود أفراد الإنسان والحيوان والنبات، وكوجود الذرات والاجرام.

الثاني: الوجود اللا مادي، وهو وجود المجردات التي لا تدرك بالحواس كوجود الروح والملائكة والطاقة والأمواج الكهربائية.

وإذا أثبت العلم خطأ المفهوم المادي للواقع، فهذا لا يعني: أن العلم رفض الواقعية وأثبت المثالية؛ ذلك لأن الدليل العلمي لم يبرهن على عدم وجود الواقع خارج الذهن، بل برهن على عدم لزوم الصفة المادية لهذا الواقع.

■ الواقعية: الإلهية ومادية

إن الواقعية التي تقابل المثالية لا تتحم الاعتقاد بلزوم الصفة المادية للواقع؛ وذلك لأنّ في الفلسفة الواقعية اتجاهين :

أولهما: الواقعية الإلهية، وهي تقرر وجود نوعين من الوجود خارج الذهن، هما: الوجود المادي والوجود اللامادي المجرد، وتعتقد بأن الوجود اللامادي هو أصل الوجود المادي.

والثاني: الواقعية المادية، وهي تقتصر الوجود الخارجي على الوجود المادي، وتنكر عالم الغيب كله، فلا تؤمن بوجود الله والروح والملائكة... الخ.

والكشف العلمي الحديثة حينما توصلت إلى تفجير الذرة وحولتها إلى طاقة، لم تبرهن بهذا على عدم الوجود الخارجي، وإنما أثبتت أن المادة ذات أصل لا مادي؛ لأنها في الحقيقة ليست إلا طاقة متكتافة، أي: أن المادة صفة عارضة على الوجود اللامادي، فلو أن الطاقة لم تتكاثف لما وجدت المادة، وبهذا تكون الكشف العلمي قد قربت أذهان البشر إلى الإيمان بالوجود غير المنظور، وبالسبب الأعلى سبحانه وتعالى، حينما أثبتت خطأ المفهوم المادي للواقع، وقدمت الدليل العلمي على صحة الواقعية الإلهية.

▣ دوافع الاتجاه نحو المثالية

تبين أن السبب الأساسي في الاتجاه نحو المثالية لم يكن هو الأدلة العلمية، بل هو الاعتقاد الخاطئ بأن الوجود الخارجي ملازم للصفة المادية.

وهناك سبب آخر ساعد أيضاً في هذا الاتجاه، وهو اكتشاف خطأ المسلمات العلمية السابقة، التي كانت تعدد حقائق قاطعة لا تقبل الشك كقانون عدم فناء المادة، الذي ثبت بطلانه عن طريق تفجير الذرة وتحويلها إلى طاقة، مما أدى إلى سيطرة الشك على بعض العلماء فقالوا: إذا كانت حقائق العلم بالأمس هي أخطاء اليوم، فلماذا لا نشك بكل حقيقة مهما كانت واضحة، ولماذا لا نشك حتى في وجود الواقع الخارجي للعالم؟

وجواب هذه الشبهة: إن الاعتقاد بوجود الواقع الخارجي ليس ناشئاً عن براهين العلم والتجربة، بل هو اعتقاد بدائي في الطبيعة الإنسانية، وهو عام يشترك فيه جميع الناس حتى المثاليون الذين ينكرونها بلسانهم، والدليل على ذلك: واقع سلوكهم في الحياة، وتعاملهم مع الناس والأشياء المحيطة بهم.

واما المسلمات العلمية التي ظهر خطؤها، فهي تدور حول تحديد

طبيعة العالم الخارجي وعنصره الأساسية، وهذه المسلمات كانت تقوم على أساس التجارب العلمية، فإذا اتضح خطأها، فهذا دليل على نقصان التجارب السابقة وعدم دقتها، لا على نفي الوجود الخارجي للعالم؛ إذ الاعتقاد بوجود الواقع عموماً لا يمكن أن يعتريه الشك؛ لأنه يعتمد على الديهيّات العقلية التي تتصف بالصحة المطلقة، ولا يجوز عليها الخطأ.

▣ الخلاصة

- الفلسفة المثالية تحصر الوجود بالصور الذهنية، والفلسفة الواقعية تعتقد بالوجود الذهني والوجود الخارجي للأشياء.
- الوجود الخارجي نوعان: مادي، كوجود الكواكب والحيوان والنبات، ولا مادي، كوجود الروح والعقل والطاقة.
- زوال الصفة المادية لا يعني زوال الواقع؛ لأن المادة ليست هي الواقع الوحيد، بل هي شكل من أشكال الواقع.

▣ أسئلة

- ١- ما هو رأي علماء الفيزياء القدماء بشأن الصفة المادية للعالم الخارجي؟

- ٢- ما الذي برهنت عليه الاكتشافات الحديثة في مجال الفيزياء؟
- ٣- ما هو الخطأ الذي جعل بعض الفيزيائيين يتجهون نحو المثالية: بعد أن أتضح لهم: أن المفهوم المادي للعالم يتعارض مع العلم والبراهين التجريبية؟
- ٤- هناك نوعان للوجود الخارجي، بينهما مع التمثيل لكلّ منهما.
- ٥- إن إثبات العلم لخطأ المفهوم المادي للواقع، لا يعني: أن العلم يرفض الواقعية ويثبت المثالية، بين دليل هذه القضية.
- ٦- في الفلسفة الواقعية اتجاهان، عرف بكلّ منهما.
- ٧- ما الذي تكشف عنه العلوم الحديثة التي توصلت إلى تفجير الذرّة وتحوّيلها إلى طاقة؟
- ٨- قيل: إذا ثبّت البراهين العلمية خطأ المسلمات السابقة، فلماذا لا نشك بكلّ حقيقة مهما كانت واضحة، بما في ذلك الوجود الخارجي للعالم؟ فكيف تردّ هذا القول؟
- ٩- إذا أتضح خطأ المسلمات التي كانت تقوم على أساس التجارب العلمية، فعلام يدلّ ذلك؟

البحث العاشر

مبدأ العالم

▣ المفاهيم الفلسفية عن حقيقة العالم

في هذا البحث نتعرف الإجابة عن سؤالين :

الأول: إن الكائنات التي يتشكل منها العالم، هل هي حقائق موجودة بصورة مستقلة عن الإدراك، أم أنها مجرد صور موجودة في الذهن؟
الثاني: إذا كان لهذا العالم واقع موضوعي مستقل عن الذهن، فما هو المبدأ الأول لهذا الواقع، هل هو المادة؟ أم قوة لا مادية هي الله سبحانه وتعالى؟

وهناك إجابتان عن السؤال الأول، أولاهما تمثل رأي المثاليين، وهي: أن الوجود محصور بالادراك والصور الذهنية، والثانية تمثل رأي

الواقعيين وهي: أن للعالم واقعاً موضوعياً مستقلاً عن الإدراك.

وأما السؤال الثاني، فقد انقسم الواقعيون في الإجابة عنه إلى فريقين، فذهب فريق إلى القول بأن الواقع الموضوعي ينحصر بالمادة المحسوسة، وأن المادة هي السبب العام لجميع ظواهر الوجود والكون بما فيها من ظواهر الشعور والإدراك، وهؤلاء هم الفلاسفة الماديون، وذهب فريق ثان إلى القول بوجود سبب لا مادي، فوق الإدراك والطبيعة معاً، هو المبدأ الأساسي للعالم بكل مجالاته الروحي والمادي، وهؤلاء هم الفلاسفة الإلهيون.

وبهذا يتضح: أن المفاهيم الفلسفية عن العالم ثلاثة: المفهوم المثالي، والمفهوم الواقعي المادي، والمفهوم الواقعي الإلهي.

■ المفهوم الإلهي ومبدأ السبيبية

وقد أدعى الماديون: أن المفهوم الإلهي يؤدي إلى إلغاء مبدأ السبيبية من عالم الطبيعة ويجمد قوانينها؛ لأنه يربط كل ظاهرة بالمبدأ الإلهي، وأعتبروا فكرة (الله) هي فكرة وضع سبب معقول لما يشاهده الإنسان من ظواهر الطبيعة، وأن الحاجة إلى هذه الفكرة تزول حين نكتشف بالتجارب العلمية حقيقة الأسباب والقوانين التي تحكم العالم ، وتولد

منها الظواهر والحوادث.

والحقيقة: أن المفهوم الإلهي لا يعني رفض الأسباب الطبيعية، ولا يدعى أن الله تعالى هو السبب المباشر للظواهر الكونية، وإنما هو يقرر: أن الله تعالى هو السبب الأعمق للوجود، واليه تنتهي سلسلة الأسباب جميعها، وبهذا يزول التعارض بينه وبين الكشف العلمي؛ لأنه يفتح للعلم أوسع مجال لاستكشاف أسرار الطبيعة ونظمها، مع الاحتفاظ بالتفسير الإلهي، والاعتقاد بوجود سبب أعمق للوجود وراء الفكر والمادة.

▣ المفهوم الإلهي والمادي في ثلاثة نقاط

اتضح: أن المفاهيم الفلسفية عن العالم ثلاثة، وقد تقدم في مبحث (الوجود الذهني والوجود الخارجي) دراسة المفهوم المثالي، وثبت هناك وجود الواقع الموضوعي، وخطأ الأدلة التي قدمها المثاليون لإنكار وجود العالم خارج الذهن.

ونعرض في هذا البحث للمفهومين المادي والإلهي في ثلاثة نقاط:

■ النقطة الأولى: موضوع التعارض بين الإلهية والمادية

إن الفلسفة المادية تميز بإنكار كل وجود وراء الحس والتجربة، أما في مجال التجربة فلا يوجد فيلسوف إلهي ومادي؛ لأن الفيلسوف سواء أكان إلهياً أم مادياً، يؤمن بالجانب الإيجابي للعلم الذي تبرهن عليه التجربة، فهما يسلمان مثلاً بأن الماء يتكون من عنصري الأوكسجين والهيدروجين، وبأن الهيدروجين هو أخف العناصر في وزنه الذري وإنما تتعارض المادية مع الإلهية حينما ت تعرض مسألة الوجود فيما وراء الطبيعة، فالإلهي يعتقد بلون من الوجود مجرد عن المادة، أي موجود خارج مجال الحس والتجربة، والمادي ينكر ذلك، ويعتبر الأسباب الطبيعية التي كشف عنها الحس والتجربة هي الأسباب الأولية للوجود، وإن الطبيعة هي المظهر الوحيد له.

فالعارض بين الإلهية والمادية ليس في الحقائق العلمية؛ لأن الإلهي -كالمادي- يعترف بجميع الحقائق العلمية التي توضحها التجارب الصحيحة، ولكنه يزيد عليه بالاعتراف بحقائق أخرى وراء المادة، وبوجود جانب روحي مجرد للإنسان، وسبب أعلى للظواهر الطبيعية فوق الأحساس والتجربة.

■ النقطة الثانية: مسؤولية الإثبات تقع على الالهي والمادي معاً
ان التعارض بين الالهية والمادية هو تعارض الإثبات والنفي، فعلى
أي منهما تقع مسؤولية الإثبات والبرهنة على اتجاهها الخاص؟
قد يقال: مسؤولية ذلك على الإلهي؛ لأنَّ صاحب الموقف الإيجابي،
أي: مدّعي الثبوت لما وراء الطبيعة، فعليه أن يبرهن على وجود ما
يُدعى.

ولكن الواقع: أنَّ المادي مسؤول أيضاً عن رأيه الخاص؛ لأنَّه لم
 يجعل القضية الالهية موضع شك، بل نفها نفياً قاطعاً، والنفي القاطع
 كالإثبات القاطع، يحتاج إلى دليل، فالمادي حينما زعم أنَّ السبب
 المجرد لا وجود له، ادعى ضمناً أنه أحاط بالوجود كله، ولم يجد فيه
 موضعأً للسبب المجرد، فلا بد أن يقدم دليلاً على الإحاطة العامة والنفي
 المطلق.

■ النقطة الثالثة: دليل الإثبات والنفي لابد أن يكون عقلياً
 إن دليل الإثبات أو النفي الذي يمكن للالهوي أو المادي أن يقدمه
 لإثبات رأيه، يجب أن يكون عقلياً، وليس مستنداً إلى التجربة مباشرة،
 خلافاً للفلسفة المادية التي درجت على اعتبار التجربة دليلاً على

مفهومها الخاص، زاعمة: أن المفهوم الإلهي لا يمكن إثباته بالتجربة. لقد أوضحنا: أن حقائق العلم ليست موضع خلاف بين الإلهية والمادية، وإنما الخلاف في التفسير الفلسفى لتلك الحقائق، أي: في وجود سبب أعلى وراء حدود الاحساس والتجربة، ومن الواضح: أن التجربة لا يمكن أن تكون دليلاً على نفي حقيقة خارج حدودها، فالعالم الطبيعي إذا لم يجد السبب المجرد في مختبره، كان هذا دليلاً على نفي وجوده في ميدان التجربة فقط، وأما نفي وجوده في مجال آخر فوق مجال التجربة، فلا يمكن ان يستنتج من التجربة ذاتها.

إن الإنسان يتمكن بطاقته العقلية أن يبرهن على المفهوم الإلهي أو المادى منطلقاً من التجربة، بشرط أن لا تكون التجربة هي الدليل المباشر على المفهوم الذي نكرنه عن العالم، بل تكون نقطة ابتداء، ثم يوضع المفهوم الفلسفى للعالم في ضوء تفسير التجربة بالمعلومات العقلية البدئية.

إن إضافة المعلومات البدئية إلى التجربة أمر ضروري في جميع المسائل العلمية، فليس هناك نظرية علمية ترتكز على أساس تجريبى بحث، بل هي تقوم على أساسين هما: التجربة والمعلومات العقلية البدئية.

وان القضية الفلسفية التي تبحث عمّا وراء الطبيعة، لا تختلف عن أية قضيّة علمية تبحث عن أحد قوانين الطبيعة، أو تحاول الكشف عن شيء من أسرارها، فالتجربة في جميع ذلك نقطة الانطلاق، وهي مع ذلك بحاجة إلى تفسير عقليّ، لكي تستخرج منها الحقيقة العلمية أو الفلسفية.

▣ الخلاصة

- الفلسفة المادية تفترق عن الفلسفة الإلهية في ناحية سلبية هي:
الإنكار والنفي لما هو موجود خارج الحقل التجريبي.
- التجربة ليست برهاناً على النفي؛ لأن عدم وجود السبب الأعلى في مجال التجربة لا يبرهن على عدم وجوده في مجال أعلى لا تمتد إليه التجربة.
- الاسلوب الذي ثبت به المفهوم الإلهي، هو نفس الاسلوب الذي ثبت به الحقائق والقوانين العلمية، الذي ننطلق فيه من التجربة، ونتهي بتفسيرها عقلياً.

■ أسئلة

- ١- الكائنات التي تشكل العالم، هل لها واقع موضوعي؟ أم أنها مجرد صور ذهنية؟ بين إجابة كل من المثاليين والواقعيين عن هذا السؤال.
- ٢- انقسم الفلاسفة الواقعيون إلى فريقين، بين ماذهب إليه كلّ منهما.
- ٣- بين خطأ ما يدعوه الماديون من أن المفهوم الالهي يؤدي إلى إلغاء الأسباب الطبيعية.
- ٤- بماذا تتميز الفلسفة المادية عن الفلسفة الإلهية؟
- ٥- التعارض بين الإلهية والمادية تعارض الاثبات والنفي، فعلى أيهما تقع مسؤولية البرهنة على اتجاهه الخاص، ولماذا؟
- ٦- هل يمكن أن تكون التجربة مستندًا للماديين على نفي وجود سبب خارج حدود التجربة؟
- ٧- كيف يتمكن الإنسان من البرهنة على النظريات العلمية أو الفلسفية؟

البحث الحادي عشر

حقيقة الحركة

▣ المفهوم الصحيح للحركة

إن التطور والتجدد في عالم الطبيعة أمر في غاية الوضوح، فالظاهره الطبيعية قد لا توجد على التمام في لحظة واحدة، بل تتحقق بالتدريج و تستنفذ إمكاناتها شيئاً فشيئاً، وبذلك تحصل الحركة ويوجد التكامل. فالماء حينما تتضاعف حرارته لا يعني ذلك: أنه يستقبل في كل لحظة حرارة بدرجة معينة توجد على التمام، ثم تفني لتوجد بعدها درجة حرارة جديدة، بل معنى ذلك: أن حرارة واحدة توجد في الماء بدرجة معينة، ثم تأخذ بعد ذلك بالترقي والتطور ، وبالتعبير الفلسفي: تتحرك حركة مستمرة متصاعدة.

إن الحركة التطورية لا يمكن أن تفهم إلا على هذا الأساس، وأما تتابع درجات متعددة، توجد كل واحدة منها بعد فناء السابقة، فليس هذا حركة وتكاملاً، بل هو لون من التغيير العام.

فالحركة سير تدريجي للوجود الواحد، ولذلك خُذَّل المفهوم الفلسفي للحركة بأنها: خروج الشيء من القوة إلى الفعل تدريجياً، ولا بد أن تحتوي كل حركة على وجود واحد مستمر منذ أن تنطلق حتى توقف، وهذا الوجود هو الذي يتحرك ويترعرع باستمرار، وكل درجة تمثل مرحلة من مراحل ذلك الوجود الواحد، وهذه المراحل إنما توجد بالحركة، أي: أن الشيء المتحرك لم يكن يملكتها قبل الحركة، والأيّاً وجدت حركة، بل هو في بداية الانطلاق يتمثل في قوى واستعدادات، تتحول بالحركة إلى واقع.

▣ مثالان للحركة

فالماء قبل وضعه على النار لا يملك من الحرارة المحسوسة إلا إمكانها، وهذا الإمكان أو الاستعداد ليس إمكاناً لدرجة معينة من الحرارة، بل لها بجميع درجاتها التي تؤدي إلى الحالة الغازية في النهاية،

وحيثما يبدأ بالانفعال والتأثير بالنار، تبدأ حرارته بالحركة والتطور، بمعنى: أن القوى والاستعدادات التي كان يملكها، تحول إلى حقيقة وواقع، والماء في كل مرحلة من مراحل الحركة، يخرج من إمكانه فعليّة، فهو في لحظة معينة من الحركة ساخن بدرجة ستين مثلاً، ولكنه يمتلك في الوقت نفسه إمكان تخطي هذه الدرجة، وقوة تطور لحرارة أعلى، وحيثما تستنفذ جميع الإمكانيات، توقف الحركة.

ولنأخذ مثلاً آخر للحركة من الكائن الحي الذي يتطور بحركة تدريجية فهو بوبيضة، فنطفة، فجنين، طفل، فمراهن، فراشد.

إن هذا الكائن في مرحلة محددة من حياته هو نطفة بالفعل، ولكنه في الوقت نفسه جنين بالقوة، أي: أنه يملك الاستعداد لأن يكون جنيناً؛ إذ لو لم يكن يملك الاستعداد لدرجة أعلى لما وجدت الحركة، ولو لم يكن بالفعل شيئاً من الأشياء، لكان عدماً، ومن ثم لا توجد حركة أيضاً، فالحركة والتطور يتالف دائماً من شيء بالفعل وشيء بالقوة، فإذا نفدت القوة والاستعداد، ولم يبق في شيء قدرة على بلوغ درجة جديدة، انتهى عمر الحركة.

▣ نقد المفهوم الديالكتيكي للحركة

ذلك هو المفهوم الصحيح للحركة، ولكن بعضًا من الفلاسفة^(١) ممن يرون: أن التناقض (الديالكتيك) مبدأ يحكم الوجود كله، طبقو نظرية هم هذه على الحركة، وظنوا أن احتواء الحركة على القوة والفعل هو لون من التناقض، وأن الجسم المتتطور يحتوي على الشيء ونقضيه، وإن الصراع بين النقضين هو الذي يولّد الحركة، وهذا معناه: أن الحركة تنبثق من داخل الشيء المتحرك، وليس بحاجة إلى سبب خارجي.

وهذا الكلام ليس صحيحاً؛ لأن وجود درجتين من الحركة بالفعل في وقت واحد، يعني: عدم إمكان التطور وجمود الحركة؛ لأن الحركة انتقال للموجود من درجة إلى درجة، ومن حد إلى حد، فلو كانت الدرجات والحدود كلها مجتمعة بالفعل، لما وجدت حركة، فمن الضروري إذن تفسير الحركة على أساس مبدأ عدم التناقض؛ لأن التناقض لو كان جائزًا، فإننا نسأل: هل تنطوي الحركة على التغيير في درجات الشيء المتحرك أم لا؟ فإن لم يكن فيها تجدد وتغيير، لم تكن حركة، بل جمود وثبات، وإن كان فيها تجدد وتغيير، قلنا: لماذا هذا

(١) وفي مقدمتهم هيجل وكارل ماركس.

التجدد، إذا كانت المتناقضات كلها موجودة بالفعل في وقت واحد، ولم يكن بينها تعارض؟

إن أبسط تحليل للحركة، يثبت أنها مظهر من مظاهر التماسع وعدم إمكان الاجتماع بين النمائين، وليس التناقض المزعوم في الحركة إلا بسبب عدم الفهم الصحيح لتشابك القوة والفعل في مجال الحركة.

▣ الحركة لا بد لها من سبب

بعد أن اتضح أن الحركة ليست ناتجة عن الصراع بين المتناقضات داخل الشيء المتحرك، وإنما هي خروج تدريجي من القوة إلى الفعل، نستطيع أن ندرك أن الحركة لا يمكن أن تستغني في وجودها عن السبب والمmotor.

وبتعبير آخر: إن الحركة العامة في الطبيعة تبرهن بذاتها على ضرورة وجود مبدأ خارج حدودها المادية؛ إذ لما كان الشيء المتتطور في لحظة انطلاق الحركة خالياً من الدرجات التي سوف يحصل عليها في مراحل الحركة، وليس في محتواه الداخلي سوى الاستعداد لتلك الدرجات، فيجب أن يوجد سبب لإخراجه من القوة إلى الفعل، وتبدل الاستعداد الثابت في داخله إلى واقع فعليّ.

ولابد ان يكون ذلك السبب المحرّك خارجاً عن حدود الطبيعة؛ لأن كل شيء موجود في الطبيعة، فوجوده حركة وتطور، ولا ثبات في عالم الطبيعة، فلا يمكن أن نقف بالتعليق عند شيء طبيعي.

▣ الخلاصة

- الحركة: خروج الشيء من القوة الى الفعل تدريجياً.
- يرى بعض الفلاسفة: أن الحركة ناتجة عن صراع المتناقضات الموجودة في الشيء الواحد، وهذا الرأي ليس صحيحاً، لدليلين:
الأول: ان اجتماع النقائض مستحيل، كما سوف يتبيّن من البحوث القادمة.

الثاني: ان المتناقضات لو جاز اجتماعها في الشيء الواحد، لجمدت الحركة؛ لأنها انتقال الشيء من حال الى حال، فلو كانت الحالات كلها حاصلة بالفعل، لما وجدت حركة.

▣ أسئلة

- ١ - ما هو المعنى الصحيح لتضاعف درجة حرارة الماء؟
- ٢ - بين الحد الفلسفى للحركة.

- ٣- ماذا يعني تطور الكائن الحي من نطفة الى جنين؟
- ٤- ما هو السبب الذي دعا بعض الفلاسفة لتفسير الحركة بصراع النقائض داخل الشيء المتحرك؟
- ٥- ما هو الدليل على خطأ القول بأن الحركة ناتجة عن اجتماع النقائض وصراعها داخل الشيء المتحرك؟
- ٦- بين الدليل على أن الحركة لا يمكن أن تستغني في وجودها عن السبب والمحرك؟
- ٧- ما هو الدليل على أن سبب الحركة لابد أن يكون خارجاً عن حدود الطبيعة؟

البحث الثاني عشر

بطلان القول بالتناقض

□ الطبيعة البشرية ترفض التناقض

يرى الفلاسفة الماركسيون: أن السبب في تطور الطبيعة راجع إلى وجود التناقضات فيها، وأن اجتماع النقائض والآضداد في المادة، يؤدي إلى نشوب الصراع بينها، وينتشر عن هذا الصراع التطور والتغيير في عالم الطبيعة.

ولهذا تخلّت الماركسية عن قانون عدم التناقض، الذي هو من أكثر الأفكار البشرية وضوحاً وبداهة، وافتقرت التناقض قانوناً عاماً للحركة والوجود كله.

ويلاحظ: أن المنكرين لمبدأ عدم التناقض يطبقون هذا المبدأ من

حيث لا يشعرون؛ فانهم حينما اعتقدوا بوجود التناقضات في الطبيعة، وجدوا أنفسهم مضطرين الى رفض مبدأ عدم التناقض؛ لأن الطبيعة البشرية لا يمكن أن توفق بين السلب والايجاب معاً، بل تشعر بالتعارض المطلق بينهما.

وسوف نبين أولاً مبدأ عدم التناقض بمفهومه البديهي الذي هو قاعدة اساسية للفكر البشري، ثم نناقش عدداً من الأمثلة التي تقدم بها القائلون بالتناقض، وحاولوا بها إبراز وجود التناقضات في الطبيعة.

▣ شروط تحقق التناقض

إن مبدأ عدم التناقض هو المبدأ القائل: إن التناقض مستحيل، وأن النفي والإثبات لا يمكن اجتماعهما في موضوع واحد، وإنما يتحقق التناقض بين النفي والإثبات إذا كانا متحددين في ظروفهما، فإذا اختلفت ظروفهما لم يكن بينهما تناقض، ونوضح ذلك بعدد من الأمثلة.

أولاً: الأربعة زوج، الثلاثة ليست زوجاً، هنا لا تناقض بين النفي والإثبات؛ لاختلافهما في الموضوع؛ لأن الإثبات تعلق بالأربعة، والنفي تعلق بالثلاثة.

ثانياً: الإنسان سريع التصديق حال الطفوقة، الإنسان ليس سريع

التصديق حال الشباب، هنا اتحد النفي والاثبات في الموضوع، ولكنهما اختلفا في الزمان، فلا تناقض بينهما.

ثالثاً: الطفل ليس عالمًا بالفعل، الطفل عالم بالقوة، هنا لا تناقض؛ لأن النفي تعلق بفعالية العلم، والإثبات تعلق بإمكانه، أي: بقابلية الطفل لاكتساب العلم.

فالتناقض بين النفي والاثبات مشروط باتحادهما في الموضوع والظروف الزمانية والمكانية وغيرها، واذا لم يتتفقا في كل هذه الأمور، لم يتحقق بينهما تناقض، وأمكن صدقهما معاً.

▣ التناقض والصراع بين الأضداد الخارجية

ولكي نبين خطأ القائلين بوجود التناقض في الكون، لابد أن نفرق بوضوح بين أمرين، أولهما: الصراع بين أضداد ونقائض خارجية، والثاني: الصراع بين أضداد ونقائض مجتمعة في شيء واحد، فالثاني هو الذي يرفضه مبدأ عدم التناقض، أما الأول، فلا علاقة له بالتناقض مطلقاً؛ لأنه لا يعني: اجتماع الضدين أو النقضيين، بل يعني: وجود كل منهما بصورة مستقلة عن الآخر، وقيام صراع بينهما يؤدي إلى نتيجة معينة، فشكل الشاطئ مثلاً ينبع عن فعل متبدل بين أمواج الماء التي تصطدم

بالأرض من ناحية، وصمود الأرض في وجه الأمواج من ناحية أخرى. فإن كان القائلون بالتناقض، يعنون هذا اللون من الصراع، فهذا لا يتعارض مع مبدأ عدم التناقض؛ لأن الأضداد هنالم تجتمع في موضوع واحد، بل وجد كل من الضدين بوجود مستقل، واشتركا في عمل متبادل حصل به على نتيجة معينة.

وان أرادوا بالتناقض معناه الحقيقي، فهذا ما لا يقبله عقل سليم، ولا دليل عليه من الواقع.

□ أدلة القول بالتناقض ومناقشتها

وفي ما يلي عدد من الأدلة التي حاولوا بها إثبات وجود التناقض في الطبيعة:

أولاً - تناقضات الحركة

قالوا: إن الحركة تناقض، فحين لا يحدث شيء، لا يوجد تناقض وبالمقابل حين لا يحدث تناقض لا يحدث شيء، وإن الشيء غير المتناقض في ذاته، يكون ساكناً لا متحركاً.

وقد أوضحنا سابقاً أن التطور والحركة لا ينافي مبدأ عدم التناقض.

وان الفتن بوجود التنافي بينهما راجع الى اعتبار القوة والفعل نقىضين، إن الحركة في كل درجة إثبات بالفعل ونفي بالقوة، فالكائن الحي حين تتطور جرثومته في البيضة حتى تصير فرخاً ثم دجاجة، لا يعني هذا التطور: ان البيضة لم تكن في طورها الأول بيضة بالفعل، بل إنها كانت بيضة فعلاً، ودجاجة بالقوة، أي: يمكن أن تصير دجاجة، فالمجتمع في داخل البيضة هو امكان الدجاجة وفعالية البيضة، لا فعلية البيضة والدجاجة معاً، ليحصل التناقض.

ثانياً - تناقضات الجسم الحي

قالوا: إن الكائن الحي لا يمكن أن ينمو دون أن يتغير ويتطور، أي: دون أن يكف عن كونه ما كان، فلكي يصير الإنسان رجلاً، عليه أن يفقد الصبا، فكل كائن حي يناضل الموت؛ لأنّه يحمل موته في طویة ذاته. ولا شك في أن الكائن الحي يحتوي على عمليتين متجددتين هما الموت والحياة، ولكن ليس في هذا شيء من التناقض؛ لأن عملية الموت وعملية الحياة لم تتفقا في موضوع واحد؛ لأن الكائن الحي يستقبل خلايا جديدة ويودع خلايا بالية، والخلية التي تفني في لحظة غير الخلية التي تحيّا في تلك اللحظة، وإنما يوجد التناقض لو أنَّ الموت

والحياة استوعبا في لحظة واحدة جميع خلايا الكائن الحي، وهذا ما لا نعرفه من طبيعة الحياة والأحياء.

ثالثاً - التناقض بين الكهربائية الموجبة والسلبية

وهذا التناقض المزعوم ينطوي على خطأين :

أولهما - اعتبار الشحنة الموجبة والسلبية من قبيل النفي والاثبات، مع أن التعبير عن أحدهما بالموجبة وعن الأخرى بالسلبية، مجرد اصطلاح فيزيائي، لا يعني: أنهما نقيضان حقيقة، فالكهربائية الموجبة هي: المماثلة للكهربائية المتولدة في القصيبي الزجاجي المدلوك بقطعة من الحرير، والسلبية هي: المماثلة للكهربائية المتولدة من الأيونين المدلوك بجلد الهر، فكل من الكهربائيتين نوع خاص من الشحنات الكهربائية، وليس إحداهما وجوداً للشيء، والأخرى عدماً له.

وثانيهما - اعتبار التجاذب لوناً من الاجتماع، وتفسير علاقة التجاذب بين الشحنة الموجبة والسلبية باجتماع النقيضين، مع أن الشحتين لم تجتمعوا في شحنة واحدة، وإنما هما شحتان مستقلتان تتجاذبان كما يتجاذبقطبان المغناطيسيان المختلفان، دون أن يعني ذلك: وجود شحنة واحدة موجبة وسلبية معاً، فالتجاذب بين الشحنات المختلفة

لون من التفاعل بين الأضداد الخارجية المستقلة عن بعضها، وقد علمنا مما تقدم: أن التفاعل بين الأضداد الخارجية لا يمتد إلى التناقض بصلة.

رابعاً - تناقض الفعل ورد الفعل

فقد اعتبروا القانون القائل: لكل فعل رد فعل يساويه في المقدار ويعاكسه في الاتجاه، من مظاهر التناقض، مع أن هذا القانون ليس دليلاً على التناقض؛ لأن الفعل ورد الفعل قوتان قائمتان بجسمين، لا نقيضان مجتمعان في جسم واحد؛ فعجلتا السيارة الخلفيتان تدفعان الأرض بقوة، وهذا هو الفعل، والأرض تدفع العجلتين بقوة أخرى متساوية في المقدار ومعاكسة في الاتجاه، وهذا هو رد الفعل، وبسببه تتحرك السيارة، فلم يحتو الجسم الواحد على دفتين متناقضتين، ولم يوجد في داخله صراع بين النفي والإثبات.

▣ الخلاصة

- مبدأ عدم التناقض معناه: أن النفي والاثبات لا يمكن أن يجتمعان معاً، فإن الشيء الواحد لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً في الوقت نفسه.

- عدم التناقض مبدأ بدأ يهوي، والمنكرون له يطبقونه لا شعورياً؛ لأنهم حينما قالوا بالتناقض، أنكروا مبدأ عدم التناقض؛ لأن العقل لا يمكنه أن يجمع بين السلب والإيجاب.
- القول بتوقف التطور على وجود المتناقضات في الشيء المتتطور، سببه عدم ادراك التناقض على حقيقته، والخلط بينه وبين القوة والفعل.

□ أسئلة

- ١ - ما الذي يراه الماركسيون بشأن سبب حصول التطور في الطبيعة؟
- ٢ - ما الدليل على أنَّ المنكرين لمبدأ عدم التناقض يطبقون هذا المبدأ من حيث لا يشعرون؟
- ٣ - ماذا يتشرط لحصول التناقض بين النفي والإثبات؟
- ٤ - ما سبب انتفاء التناقض بين هاتين القضيتيين: الشتاء بارد، الصيف ليس بارداً؟
- ٥ - ما سبب انتفاء التناقض بين هاتين القضيتيين: الإنسان قويٌ حال الشباب، الإنسان ليس قوياً حال الشيخوخة؟
- ٦ - ما سبب انتفاء التناقض بين قضيتي: البذرة ليست شجرة بالفعل، البذرة شجرة بالقوة؟

- ٧ - مثل للصراع بين الأضداد والتناقض الخارجية، وبين السبب في كونه غير منافٍ لمبدأ عدم التناقض.
- ٨ - ما الدليل على أنَّ احتواء الكائن الحي على عملية الموت والحياة، ليس فيه شيءٌ من التناقض؟
- ٩ - لماذا لا يكون اجتماع الشحنة الموجبة والشحنة السالبة من قبيل اجتماع النفي والاثبات؟
- ١٠ - لماذا لا يمكن اعتبار الفعل ورداً لفعل من مظاهر التناقض؟

البحث الثالث عشر

كيفية التطور

□ دفعيّة التطور وهدفها السياسي

يرى الفلاسفة الماركسيون: أن التغيير الكمي التدريجي الحاصل في المادة ، يؤدي الى تغيير نوعي فجائي، أي: أن التغيرات الكمية تبلغ درجة معينةً تتحول فيها المادة دفعةً من حالة الى حالة أخرى. وهم يرون: أن حركة المادة تكاملية متصاعدة دائماً، وليس حركة دائيرية ترجع فيها المادة الى نقطة البداية.

و قبل أن نستعرض استدلال الماركسيين على دفعيّة التطور، يحسن أن نشير الى الهدف السياسي الذي أملئن عليهم وضع هذا القانون؛ فإنهم درجوا على وضع الخطة السياسية لتطوير المجتمع، ثم التفتيس بعد

ذلك عن الأسس الفلسفية التي ترتكز عليها تلك الخطة.

لقد تبنت الماركسيون نظرية الانقلاب الاجتماعي الدفعي من حكم الرأسماليين الى حكم البروليتاريا (الطبقة العاملة)، فأخذوا يبحثون عن سند فلسطي لهذا الانقلاب، ولم يجدوا هذا السند في قانوني الحركة والتناقض؛ لأن هذين القانونين يحتمان على المجتمع أن يتطور بسبب التناقضات الموجودة فيه، ولكنهما لا يحددان طبيعة هذا التطور وأنه يتم بصورة دفعية، ولهذا عملوا الى وضع قانون جديد ترتكز عليه فكرة الانقلاب، وهو قانون (قفزات التطور) القائل بأداء التغيرات الكمية الى تغيير كيفي بصورة دفعية، وعلى أساس هذا القانون لم يعد الانقلاب ممكناً فحسب، بل عاد ضرورياً وحتمياً، فالتغيرات الكمية التدريجية في المجتمع تحول بصورة انقلابية الى تغيير نوعي، فينهدم الشكل القديم للمجتمع، ويتحول الى شكل جديد، تقصى فيه الطبقة الاجتماعية المسيطرة سابقاً، وتفسح المجال لسيطرة الطبقة الاجتماعية المناقضة لها.

▣ القفزة ليست حتمية للتطور الكيفي

ومن الأمثلة التي تقدموا بها لإثبات قفزات التطور ودفعيته: الماء

حينما يوضع على النار، فترتفع درجة حرارته بالتدريج، وتحدث بسبب هذا الارتفاع تغيرات كمية بطيئة، لا تأثير لها في البداية على كيفية الماء من حيث هو سائل، ولكن اذا زادت الحرارة الى درجة مئه، انقلب الماء في تلك اللحظة من حالة السيلان الى الحالة الغازية، فتحول التغيرات الكمية الى تغير كيفي، وكذلك الأمر اذا هبطت درجة حرارة الماء الى الصفر، فإنه سيتحول في لحظة واحدة الى جليد.

ونحن لانشك في أن التطور الكيفي في عدد من الظواهر الطبيعية يحصل بقفزات ودفعات آنية، ولكن هذا لا يعني: أنَّ من الضروري دائمًا وفي جميع الحالات أن يتمُّ التطور بهذا النحو، فإن صيرورة الجرثومة الحية في داخل البيضة فرخاً، وصيرورة البذرة شجرة، لا يأتي عن طريق قفزة، تنقل الجرثومة في لحظة واحدة الى فرخ، والبذرة الى شجرة، بل إنَّ من الواضح: أن الصيرورة في هذين المثالين تحصل بحركة تدريجية متضاعدة.

وحتى في المواد الكيميائية القابلة للانصهار، نجد هذين النحوين من التطور، وأنه قد يحصل فيها بقفزة أو بصورة تدريجية؛ فإن المواد المتبلورة تحول من حالة الصلابة الى حالة السائلة دفعه، كالجليد الذي درجة حرارة انصهاره (٨٠) سعرة حرارية، فإذا بلغها تحول فجأة الى

سائل، وأما المواد غير المتبلورة كالزجاج وشمع العسل، فإنها لا تنصهر ولا يحدث فيها التحول الكيفي بصورة دفعية، بل يتم ذلك تدريجياً، فالشمع مثلاً ترتفع حرارته، حتى إذا بلغت درجة معينة، خفت صلابته، وبدأ يلين بصورة تدريجية، ويتردرج في حالة الليونة، فلا هو بالصلب ولا هو بالسائل، حتى يتحول إلى مادة سائلة.

وبهذا يتضح: أن الففزة ليست حتمية للتطور الكيفي، وأنه كما يكون دفعياً، يكون تدريجياً أيضاً.

□ ثلث ملاحظات

ولنعد إلى مثال الماء في انجماده وغليانه، لنسجل عليه الملاحظات التالية :

أولاً - تحول الماء إلى غاز أو بخار معلول لأسباب خارجية

إن الحركة التطورية في الماء ليست ناتجة عن تناقضات المحتوى الداخلي للماء؛ إذ أنه لو لا الحرارة الخارجية يبقى ماء، ولا يتطور إلى غاز، فاذا اعتبرنا القانون المتحكم في الانقلاب الاجتماعي، هو نفس القانون الذي يتم بموجبه الانقلاب الدفعي في الماء، كانت النتائج معاكسة لما تريده الماركسية؛ لأن الانقلاب في نظام المجتمع سيكون

ناتجاً عن عوامل خارجية، لا عن التناقضات الموجودة في نفس النظام، وعليه تزول صفة الحتمية والضرورة عن حدوث الانقلاب اذا لم تكتمل العوامل الخارجية، فكما يمكن المحافظة على حالة السيلان للماء بابعاده عن عوامل التبخر والانجماد، كذلك يمكن المحافظة على النظام الاجتماعي بالابتعاد به عن العوامل الخارجية التي تؤدي الى تغييره.

ثانياً - التطور قد يكون دائرياً

إن الحركة التطورية في الماء ليست حركة ارتفائية صاعدة؛ بل هي حركة دائria؛ فالماء يتحول من سائل الى بخار، ثم يعود البخار كما كان سائلاً، دون أن يستمر في التصاعد، فإذا اعتبرت هذه الحركة تناقضية، كان معنى ذلك: أنه ليس من الضروري أن تكون الحركة تصاعدية دائماً، ولا من المحتوم أن يكون التطور التناقضي في ميادين الطبيعة والمجتمع تكاملياً وارتقائياً.

ثالثاً - تحول الماء الى غاز أو بخار ليس تحولاً للكمية الى كيفية

إن تحول التغيرات الكمية الى كيفية، لا ينطبق على مثال الماء في

تحوله الى غاز أو جليد، والماركسيّة اعتبرت الحرارة كمية، والغاز أو الجليد كيّفية، فقررت: أن الكمية في المثال تحولت الى كيّفية، لكن هذا المفهوم لا يقوم على أساس صحيح: لأن التعبير الكمي عن الحرارة الذي يستعمله العلم حين يقول: ان درجة حرارة الماء مثلاً، لا يمثل حقيقة الحرارة، وإنما هو مجرد اسلوب علمي في ردّ الظواهر الطبيعية الى كميات ليسهل ضبطها وتحديدها.

ويلاحظ: أن الطريقة العلمية لا تعتبر الحرارة وحدها ظاهرة كمية، بل إن تحول الماء الى بخار يتخد تعبيراً كميّاً أيضاً؛ لأن العلم يحدد الانتقال من الحالة السائلة الى الغازية بضغط يمكن قياسه كميّاً.

ففي المنظار العلمي لا توجد في المثال الا كميات يتحول بعضها الى بعض، وأما في المنظار الحسّي، أي في مفهومنا الذي يوحى به إحساسنا بالحرارة حين نغمس يدنا في الماء، او إحساسنا بالغاز حين نرى الماء يتحول بخاراً، فإن الحرارة حالة كيّفية كالغاز، وهي: الحالة التي تبعث في نفوسنا شيئاً من الانزعاج، بينما تكون الحرارة شديدة، فالكيّفية إذن - لا الكمية - هي التي تحول الى كيّفية أخرى.

فالماء في حرارته وتبخره، لا يمكن أن يكون مثالاً لتحول الكمية الى كيّفية، الا إذا تناقضنا فنظرنا الى الحرارة بالمنظار العلمي، والى الحالة

الغازية بمنظار حسني.

▣ الخلاصة

- يؤكد الفلاسفة الماركسيون ثلاثة أمور بشأن الحركة والتطور، وهي :
 - أولاً - أنَّ التطور يحصل بسبب التناقضات الداخلية في الشيء، وأنه ليس بحاجة إلى علة خارجية.
 - ثانياً - أنَّ التغيرات الكمية لابد أن تؤدي إلى تغيرات كيفية دفعية.
 - ثالثاً - أنَّ التطور يسير بشكل متزايد دوماً، وليس بشكل دائري.
- والصواب: أنَّ التطور يتم بأسباب خارجة عن الشيء المتتطور، وليس بسبب التناقضات الداخلية فيه، وهو لا يكون دفعياً دائماً، بل قد يكون تدريجياً، ولا يسير بصورة متزايدة دوماً، بل قد يكون دائرياً ويعود إلى نقطة البداية.

▣ أسئلة

- ١ - ما المراد بأداء التغير الكمي إلى تغير كيفي؟
- ٢ - ما هو الهدف السياسي من وراء ذهاب الماركسيين إلى القول

بقانون (قفزات التطور)؟

٣- اذكر مثلاً من الظواهر الطبيعية يؤدي فيه التغير الكمي الى تغير كيفي دفعي.

٤- اذكر مثلاً لا يحصل فيه التطور الكيفي بحركة دفعية، وانما يتم بحركة تدريجية متضاعدة.

٥- ما هو الفرق بين تحول كلّ من الجليد والشمع من حالة الصلابة الى حالة السيلان؟

٦- ما الدليل على أن الحركة التطورية في تحول الماء الى غاز ليست ناتجة عن تناقضات المحتوى الداخلي للماء؟

٧- اذا كان القانون المؤدي الى الانقلاب الاجتماعي، هو نفس القانون الذي يتم بموجبه الانقلاب الدفعي في الماء، فان النتائج ستكون معاكسة لما تريده الماركسية، لماذا؟

٨- هات مثلاً من الطبيعة تكون الحركة فيه دائيرية، لا ارتقائية متضاعدة.

٩- أين يكمن خطأ الماركسية في اعتبارها الحرارة كمية والغاز كيفية؟

البحث الرابع عشر

ترابط أجزاء الوجود

▣ ترابط الموجودات ومبدأ العلية

ليس هناك فيلسوف لا يعتقد بوجود الارتباط الوثيق بين أجزاء الكون؛ ذلك لأن الحوادث في النظرة العامة لا تعدو أحد أمور ثلاثة:
الأول: أن تكون مجموعة من الصدف المتراكمة، بمعنى: أن كل حادثة توجد من باب الاتفاق والصدفة، دون أن يكون هناك أي ضرورة تستدعي وجودها.

الثاني: أن يكون وجود أجزاء الكون راجعاً إلى الضرورة الذاتية، وأن كل شيء يوجد بسبب من ذاته، دون احتياج إلى علة خارجية.
وهذا الرأيان لا يلتئمان مع مبدأ العلية القائل: إن كل حادثة ترتبط

في وجودها بأسبابها وشروطها الخاصة؛ لأن هذا المبدأ يرفض الصدفة والاتفاق، كما يرفض الضرورة الذاتية للحوادث أيضاً.

الثالث: أن أجزاء العالم مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً كاملاً، وأن كل جزء يخضع في وجوده وبقائه لعلته وشروط وجوده، وعليه لا يمكن عزل الحادثة عن محطيها وشروطها.

والفلاسفة الإلهيون يأخذون بهذا الرأي الثالث، ويقيمون نظريتهم في الارتباط العام بين أجزاء الكون في ضوء مبدأ العلية وقوانينها الفلسفية وإن كانوا يوكلون الكشف عن طبيعة وتفاصيل الارتباط القائم بين الأشياء إلى العلوم على اختلاف أنحائها؛ ذلك لأن الفهم الفلسفي العام للعالم يضع الخط العريض، ويترك للعلم شرح التفاصيل وبيان الأنحاء الواقعية للارتباط.

▣ نقطتان مهمتان

ومن الضروري أن نشير في سياق الحديث عن الارتباط العام في عالم الموجودات الذي يؤمن به فلاسفة الإلهيون، إلى نقطتين مهمتين:

النقطة الأولى - ارتباط الموجودات لا ينافي ملاحظة الشيء مستقلاً
 ان ارتباط كل جزء من أجزاء الكون بما يتصل به من أسباب وشرائط،
 لا يعني: عدم امكان ملاحظته بصورة مستقلة، ووضع تعريف خاص له،
 ولذا كان التعريف أحد المواقع التي يبحثها المنطق الإلهي.

ولعل هذا هو الذي جعل الفلاسفة الماركسيين يتهمون الإلهيين
 بعدم الإيمان بالارتباط العام بين الموجودات؛ فإنهم وجدوا الإلهي
 يأخذ الشيء الواحد فيحاول تحديده وتعريفه بصورة مستقلة عن بقية
 الأشياء، فظنوا أنه لا يُقرّ بوجود الارتباط بين الأشياء، فكانه حينما عَرَفَ
 الإنسانية بأنها: حياة وفكرة، وعَرَفَ الحيوانية بأنها: حياة وإرادة، قد عزل
 الإنسانية والحيوانية عن بقية الأشياء وقال باستقلالهما وجوداً.

والواقع: أن التعريف في منطق الإلهيين لا ينافي القول بترتبط
 الموجودات؛ فإن تعريف الإنسانية بأنها حياة وفكرة، لا يعني: إنكار
 ارتباط الإنسانية بالأسباب الخارجية، بل يعني: إعطاء فكرة عن الشيء
 الذي يرتبط بتلك الأسباب، ليسهل البحث عن أسبابه ودراسة علاقته
 بها.

النقطة الثانية - الارتباط لا يكون دائرياً
 إن الارتباط بين أجزاء الوجود لا يمكن أن يكون دائرياً، أي: أن

الحاديين المرتبطين كالغليان والحرارة، لا يمكن أن يكون كل منهما شرطاً لوجود الآخر، فالحرارة لما كانت سبباً لوجود الغليان، لا يمكن أن يكون الغليان سبباً لوجودها أيضاً.

فكل جزء من أجزاء الكون له درجة خاصة في الوجود التي تحدد عللها ومعلولاته، وأما أن يكون كل من الجزيئين أو الحاديين، علة لوجود الآخر، ومعلولاً له في الوقت نفسه، فذلك يجعل الارتباط السببي دائرياً يرجع من حيث بدأ، وهو غير معقول.

□ استدلال الماركسيين بالكشف عن الحديثة

وقد استدل الماركسيون لاثبات ترابط العمليات التطورية ببعض الاكتشافات العلمية الحديثة، ومنها :

أولاً: اكتشاف الخلية، بوصفها الوحدة التي تنموا منها الكائنات العضوية النباتية والحيوانية كلها بطريق التكاثر والتمايز.

ثانياً: اكتشاف تحول الطاقة، الذي يبين أن جميع القوى المؤثرة في الطبيعة غير العضوية، هي ظواهر مختلفة للحركة، تمر كل منها إلى الأخرى بنسب كمية معينة.

ثالثاً: نظرية داروين، التي تنص على أن جميع ما يحيط بنا من

منتجات الطبيعة - بما في ذلك البشر - ما هو إلا نتائج عملية طويلة من التطور.

▣ الكشف عن الحديثة تؤيد رأي الفلسفه الإلهيين

ويلاحظ: أن هذه الاكتشافات جمِيعاً كانت لصالح رأي الفلسفه الإلهيين؛ وذلك لأن الاكتشاف الأول، برهن على أن مبدأ الحياة هو الخلية الحية، وقضى على توهُّم إمكان قيام الحياة في أية مادة تتوفَّر فيها عوامل خاصة، فاكتشاف الخلية الحية برهن على وجود أصل واحد للأجسام الحية، وأثبت أيضاً وجود فرق كبير بين الكائن الحي وغيره. وأما الاكتشاف الثاني، فقد دلل على أن جميع الاشكال التي تتخذها الطاقة - بما فيها الصفة المادية - هي صفات عَزَّضية، فتكون بحاجة إلى سبب خارجي.

وأما نظرية داروين عن تطور الانواع وخروج بعضها من بعض، فإنها لو صحت - لا تتفق مع قانون التناقض؛ لأنها لا ترجع تطور النوع الى التناقضات التي في داخله، بل ترجعه الى ما يظفر به بعض افراد النوع من ميزات وخصائص عن طريق اسباب خارجية محددة، كالبيئة والمحيط، ثم تنتقل هذه الميزات بالوراثة الى الابناء، فينشأ جيل قوي،

و حينما ينشب الصراع على القوت والبقاء بين هذا الجيل وبين الضعف من افراد النوع الذين لم يظفروا بمثل تلك الميزات، يفني الضعيف ويبيقى الأفراد الأقوياء.

■ التعارض بين نظرية داروين والتفكير الماركسي

وفي ما يلي نسجل بعض نقاط التعارض بين نظرية داروين وبين طريقة الماركسيين في التفكير القائمة على الایمان بمبدأ التناقض، وهي:

أولاً: ان نظرية داروين تفسر تطور الحيوان بأسباب خارجية، وأن الميزات التي يحصل عليها الجيل القوي من افراد النوع ليست نتيجة لتناقض داخلي في كيانه، بل الظروف الموضوعية التي عاشها الأفراد الأقوياء، هي التي أمدتهم بعناصر قوتهم، لا الصراع الداخلي في أعماقهم كما يفترض الماركسيون.

ثانياً: ان الميزة التي يحصل عليها الفرد بأسباب خارجية، لا تتحرك وتنمو بتناقض داخلي، بل تظل ثابتة، وتنتقل بالوراثة، فيحصل بذلك تغيير بسيط، وهكذا تتولد الميزات وتواصل وجودها في الابناء عن طريق الوراثة وهي ساكنة ثابتة، وبتجسدها يتكون الشكل الأرقى للنوع.

ثالثاً: إن صراع الأضداد في رأي الماركسيين يعبر عن صراع بين ضددين يؤدي إلى توحدهما في مركب ثالث، وأما الصراع في نظرية داروين، فإنه لا يؤدي إلى توحد الأضداد في مركب أرقي، بل يؤدي إلى فناء أحد الضدين وبقاء الآخر، أي: أنه لا ينتج مركباً جديداً يتوحد فيه الضعفاء والأقوياء.

رابعاً: إن التفاعل الذي يحدده داروين بين الكائن الحي والطبيعة، لا يضمن تكامل الكائن الحي دائماً، بل قد يفقد بسبب ذلك شيئاً من كماله، كالحيوانات التي اضطرت إلى العيش في الكهوف وترك حياة النور مدة طويلة، فقدت بصرها - في رأي داروين - بسبب تفاعಲها مع محیطها الخاص، وعدم استعمالها لعضو الإبصار فيه، فأدى التطور إلى تراجعها وانحطاطها، خلافاً للماركسية التي تعتقد أن العمليات التطورية في الطبيعة عمليات تصاعدية دائماً.

▣ الخلاصة

- إن جميع أجزاء الكون متراقبة، ولا يمكن فصل الحوادث والأشياء عن أسبابها.
- إرتباط أجزاء الوجود بعضها لا يمنع من ملاحظة كل شيء.

بصورة مستقلة.

- الارتباط ليس دائرياً، فلا يمكن أن تكون الحادثة علة لشيء معين ومعلولة له في الوقت نفسه.
- الاكتشافات الحديثة أيدت رأي الفلاسفة الإلهيين في أن تطور الأشياء يحدث بأسباب خارجة عن ذاتها، وأنه لا يكون تصاعدياً دائماً.

□ أسئلة

- ١ - هناك رأيان في تفسير وجود حوادث الكون لا يلتئمان مع مبدأ العلية، بين هذين الرأيين.
- ٢ - ما هو رأي الفلاسفة الإلهيين في تفسير وجود أجزاء الكون؟
- ٣ - ما الذي جعل الماركسيين يتهمون الفلاسفة الإلهيين بعدم الإيمان بالارتباط العام بين الموجودات؟
- ٤ - ماذا يعني ملاحظة الشيء الواحد وتعريفه بصورة مستقلة عن بقية الأشياء، في منطق الإلهيين؟
- ٥ - ما معنى قولهم: إن الارتباط بين أجزاء الوجود لا يمكن أن يكون دائرياً؟
- ٦ - ما هو الوجه في أن اكتشاف الخلية بوصفها الوحدة التي تنمو منها

الكائنات العضوية بطريقة التكاثر والتمايز، كان لصالح رأي الفلاسفة الإلهيين؟

٧- إن نظرية داروين عن تطور الأنواع وخروج بعضها من بعض، لا تتفق مع قانون التناقض، بين الوجه في ذلك.

٨- وَضَعَ الفرق بين نتيجة صراع الأضداد في رأي الماركسيين، وبين نتيجته في نظرية داروين.

٩- إن التفاعل الذي يحدّده داروين بين الكائن الحي والطبيعة لا يضمن تكامل الكائن الحي دائمًا، وَضَعَ ذلك بمثال، وبين مخالفته لرأي الماركسيّة في طبيعة العمليّات التطورية.

البحث الخامس عشر

مبدأ العلية

□ خصائص مبدأ العلية

عرضنا في بحث سابق الى مبدأ العلية القائل: إن لكل شيء سبباً، وانتهينا الى النتائج التالية :

الأولى: أنَّ هذا المبدأ لا يمكن إثباته بالحسن؛ لأنَّ الواقع الموضوعي للإحساس يتوقف إثباته على مبدأ العلية، فلا يمكن أن يكون هذا المبدأ نفسه متوقفاً في ثبوته على الحسن، بل هو مبدأ بدائي، يصدق به العقل بصورة مستقلة عن الإحساس.

الثانية: أنَّ هذا المبدأ ليس نظرية علمية تجريبية، بل هو قانون عقلي

فلسي فوق التجربة، بل إن الاستنتاج العلمي القائم على التجربة، لا يمكن إعطاؤه صفة القانون العام إلا بالاستناد إلى مبدأ العلية.

الثالثة: لا يمكن الاستدلال على ردّ مبدأ العلية، وكل محاولة لرده تنتهي على الاعتراف به؛ لأنها تريد أن يكون دليلها علة للتصديق بتنفي هذا المبدأ، فهو إذن ثابت بصورة متقدمة على جميع الاستدلالات.

وفي هذا البحث سنعرض لثلاث مسائل تتعلق بمبدأ العلية.

■ المسألة الأولى: لماذا تحتاج الأشياء إلى علة؟

العلية: علاقة قائمة بين وجودين هما: العلة والمعلول، فهي لون من الوان الارتباط بين شيئين، وللارباط أنواع كثيرة، فالكاتب مرتبط بالقلم الذي يكتب به، والأسد مرتبط بالقيد الذي يطوق عنقه، وهكذا.

وواضح: أن الارتباط في المثالين ونحوهما عارض على شيئين، لكنّا منهما وجوده الخاص السابق على ارتباطه بالأخر، فارتباطهما شيء وجودهما شيء آخر، فليس الكاتب في حقيقته ارتباطاً بالقلم، بل الارتباط صفة تحصل لهما بعد وجود كلّ منها مستقلأً عن صاحبه. وهذا الفرق بين حقيقة الارتباط وبين الوجود المستقل لكلّ من

الشيئين المرتبطين، يوجد في كل أنواع الارتباط، باستثناء نوع واحد هو: ارتباط شيئين برباط العلية، فلو أن (ب) ارتبط بـ(أ) ارتباط المعلول بعلته، لما ممكن أن يملك وجوداً مستقلاً عن ارتباطه بـ(أ)؛ لأنَّ لو كان يملك وجوداً حقيقةً مستقلاً عن ارتباطه به، لما كان معلولاً له وناشتاً منه.

فحقيقة الوجود المعلول هي نفس ارتباطه بعلته وتعلقه بها، وبهذا نعرف سرَّ احتياج الأشياء إلى عللها؛ فإنَّ الحقيقة الخارجية إذا كانت عين التعلق والارتباط، لا يمكن أن تنفك عن شيء تتعلق به، وذلك الشيء هو سببها الذي لا يمكنها أن توجد مستقلة عنه.

ويتضح مما تقدم: أنَّ الحقيقة الخارجية إذا لم تكن حقيقة ارتباطية وتعلقيَّة، لم يشملها مبدأ العلية، فليس الوجود الخارجي بصورة عامة محكوماً لمبدأ العلية، بل خصوص الوجودات التي تعبَّر في حقيقتها عن التعلق والارتباط.

▣ المسألة الثانية: قانون التعاصر بين العلة والمعلول

إنَّ وجود المعلول تابع لوجود العلة، ولا يمكن أن يوجد بعد زوال علته.

وهناك محاولتان لإثبات إمكانبقاء المعلول بعد ارتفاع علته :

المحاولة الأولى: هناك طائفه من ظواهر الكون تكشف عن استمرار بقاء المعلول بعد زوال علته؛ فالعمارة الشاهقة تبقى قائمة بعد انتهاء عملية البناء، وإن تركها العمال ولم يبق أحد منهم على قيد الحياة، فهذا دليل على أن المعلول يملك القدرة على البقاء بعد حدوثه، وتزول حاجته إلى علته.

وهذا الدليل ناشيء من عدم التمييز بين العلة وغيرها؛ فإن المعلول للعمال هو نفس عملية البناء، وهي: مجموعة من الحركات والأفعال يقوم بها العمال من أجل جمع مواد البناء وتركيبها، وهذه الحركات لا تستغني عن العمال في وجودها، بل تنقطع حتماً حينما يكف العمال عن العمل، وأما الوضع الخاص الذي حصل لمواد البناء، فإنه معلول في وجوده واستمراره لخصائص تلك المواد، التي تفرض على المادة المحافظة على وضعها.

المحاولة الثانية: ما زعمه علماء الميكانيك الحديث من أن الحركة إذا حدثت بسبب، فإنها تحافظ على بقائها ولا يحتاج استمرارها إلى علة. ولرد هذا الزعم، لابد من شرح قانون (القصور الذاتي) الذي ارتكز عليه هذا الزعم؛ فان الاعتقاد السائد عن الحركة قد يمأ هو أنها تتبع القوة

المحركة في بقائها، فهي تستمر مادامت القوة المحركة موجودة، فإذا زالت سكن الجسم، ولكن الميكانيك الحديث وضع قانوناً جديداً للحركة، وهو: أنَّ الأجسام الساكنة والمحركة تبقى كذلك (ساكنة أو محركة) حتى تتعرض لتأثير قوة أكبر منها تضطرها إلى تبديل حالتها. والدليل على ذلك هو التجربة التي ثبتت أن جهازاً ميكانيكياً محركاً بقوة خاصة في شارع مستقيم، إذا انفصلت عنه القوة المحركة، يبقى متحركاً بمقدارٍ ما بعد ذلك، ومن الممكن في هذه الحركة المتبقية أن يزداد في أمدها بتدھين آلات الجهاز وتسوية الطريق، وتخفيض الضغط الخارجي، بنحوٍ يؤدي إلى مضاعفة الحركة، وإذا افترضنا ارتفاع جميع الموانع، أمكن استمرار الحركة دون توقف، أي: أن الحركة إذا أثيرت في جسم، ولم تتعارضها قوة خارجية مصادمة، تبقى مستمرة وإن زالت القوة المحركة.

وهذه التجربة إذا صحت لا تعني: أن المعلول بقي بلا علة؛ لأنها لم تثبت أن العلة الحقيقة للحركة هي القوة الدافعة من الخارج، لنعرف أن الحركة قد استمرت رغم زوال عللها، بل من الجائز أن يكون السبب الحقيقي للحركة شيئاً موجوداً على طول الخط، وال فلاسفة المسلمون يعتقدون بأن الحركات العَرضية - بما فيها الحركة الميكانيكية للجسم -

تولد جمِيعاً من قوة موجودة في الجسم نفسه، وهذه القوة هي المحرك الحقيقي، والاسباب الخارجية تعمل لإثارة هذه القوة واعدادها للتأثير.

■ المسألة الثالثة: قانون النهاية

إن العلل المتتصاعدة، يجب أن تقف عند علة أولى لم تنبثق عن علة سابقة، ولا يمكن أن يتتصاعد تسلسل العلل تصاعداً لا نهاية له؛ لأن وجود كل معلول هو نوع من التعلق بعلته، فالموارد المعلولة جمِيعاً هي تعلقات وارتباطات، فهي بحاجة إلى حقيقة مستقلة تستهوي إليها.

وبتعبير آخر: إذا وجد في سلسلة الأسباب سبب غير خاضع لمبدأ العلية ولا يحتاج إلى علة، كان هو السبب الأول الذي يضع للسلسلة بدايتها، وإن كان كل موجود في السلسلة محتاجاً إلى علة، يبقى السؤال عن الشيء الذي صدرت عنه الموارد جمِيعاً، ولا جواب عن هذا السؤال إلا بافتراض سبب أول متحرر من مبدأ العلية، ننتهي إليه في تعليل وجود الأشياء، ولا نواجه فيه سؤال: ما علة وجوده؟ لأن هذا السؤال يطرح فقط في الأشياء الخاضعة لمبدأ العلية.

وبهذا يتضح: أن تطبيق مبدأ العلية على الوجود، يستهوي بما إلى

الاعتقاد بوجود علة أولى، ينتهي إليها تسلسل العلل، وينبثق عنها الوجود كله.

▣ الخلاصة

- مبدأ العلية من المبادئ البدئية، وعليه يتوقف إثبات الواقع الموضوعي للإحساس، واستنتاج القوانين العلمية من التجربة.
- مبدأ العلية يحكم الوجودات الارتباطية؛ لأن وجودها عين الارتباط بغيرها، وأما الوجودات غير الارتباطية فليست محكومة لهذا المبدأ.
- وجود المعلول لا يمكن أن يستمر بعد زوال عنته.
- سلسلة العلل المتتصاعدة لابد أن تنتهي إلى علة مستقلة بذاتها، وليس محتاجة إلى علة في وجودها، وهي المبدأ الأول للوجود.

▣ أسئلة

- ١ - إن مبدأ العلية لا يمكن إثباته بالحس، ما الدليل على ذلك؟
- ٢ - بين الوجه في عدم إمكان الاستدلال على رد مبدأ العلية.
- ٣ - اذكر الفرق بين ارتباط العلة بالمعلول وارتباط القلم بالكاتب.

٤- متى يكون الموجود الخارجي محكوماً لمبدأ العلية؟

٥- ما معنى قانون التعاصر بين العلة والمعلول؟

٦- قيل: إن بقاء العمارة قائمة بعد انتهاء عملية البناء دليل على إمكان
بقاء المعلول بعد زوال علته ، فكيف ترد هذا القول؟

٧- ما هو القانون الجديد الذي وضعه علماء الميكانيك الحديث
للحركة؟

٨- أثبتت التجربة أن الحركة إذا أثيرت في جسم، ولم تصادمها قوة
خارجية، فإنها تبقى مستمرة وإن زالت القوة المحركة، بين الدليل على
أن هذه التجربة لا تعني إمكان بقاء المعلول بلا علة.

٩- وضح المراد بقانون النهاية واذكر الدليل عليه.

البحث السادس عشر

العلة المادية والعلة الفاعلية

■ مادة العالم وفاعله الحقيقي

علمنا أن السبب الأعلى لهذا الوجود هو العلة الأولى، التي يستهوي إليها تسلسل العلل، وليس بحاجة إلى علة لوجودها.

وهنا نريد أن نتعرّف أن هذه العلة المستعنية بذاتها، والتي هي المصدر الأول للوجود، هل هي المادة، أم شيء آخر وراء المادة؟ وبالتالي نقول: هل إن العلة الفاعلية للعالم هي نفس علته المادية أم شيء غيرها؟

ولإيضاح ذلك نمثل بالكرسي، الذي هو صفة أو هيئة تحصل من تنظيم عدة أجزاء مادية تنظيمًا خاصًا، ولذا فهو لا يمكن أن يوجد دون

مادة من خشب أو حديد أو غيرهما، ولهذا يسمى الخشب علة مادية للكرسي الخشبي، واضح: أن هذه العلة المادية ليست هي العلة الحقيقة التي صنعت الكرسي؛ فان الفاعل الحقيقي للكرسي شيء غير مادته، وهو النجار، ولذا يطلق الفلاسفة على النجار اسم (العلة الفاعلية)، فالفارق بين العلة المادية والفاعلية في الكرسي واضح، ونريد أن نبين نفس الفارق في العالم، بين مادته الأساسية وفاعله الحقيقي، فهل أن فاعل هذا العالم وصانعه شيء آخر خارج عن حدود المادة ومتغير لها، أم أنه نفس المادة التي تتركب منها كائنات العالم؟

■ المادة الأصلية للعالم: العناصر أم الذرّات؟

في المادة فكر تان علميتان طرحوها العلماء منذ القديم :

الأولى: أنّ مادة العالم تتركب من مواد بسيطة تسمى بالعناصر.

والثانية: ان المادة تتكون من دقائق صغيرة جداً تسمى بالذرّات.

اما الفكرة الأولى، فقد أخذ بها عدد من الفلاسفة الاغريق، فأرجعوا جميع المركبات الى أربعة عناصر هي: الماء والهواء والتراب والنار، وأضاف علماء العرب ثلاثة عناصر هي: الكبريت والزئبق والملح، وكانت خصائص العناصر في رأيهم حدوداً فاصلة بينها، فلا يمكن ان

يتحول عنصر الى عنصر آخر.

وأما الفكرة الثانية، فكانت موضع خلاف بين نظريتين: أولاهما النظرية الانفصالية لديمقراطس، وهي تقول: إن الجسم يتركب من أجزاء صغيرة يتخللها فراغ، واطلق على تلك الأجزاء اسم الذرة أو الجزء الذي لا يتجزأ، والثانية النظرية الاتصالية لأرسطو، القائلة: إن الجسم ليس مرکباً من وحدات صغيرة، بل هو شيء واحد متصل متماسك، يمكن تقسيمه وایجاد أجزاء منفصلة منه بالتقسيم.

■ مادة العالم الأصلية والفيزياء الحديثة

وقد أقرت الفيزياء الحديثة الفكرتين معاً، وكشفت في مجال كلّ منها عن حقائق جديدة لم يكن من الممكن التوصل اليها سابقاً. فيما يخصّ الفكرة الأولى كشفت الفيزياء عن اكثـر من مئة من العناصر التي تكون منها المادة الأساسية للكون، وقسمت الاجسام الى قسمين:

جسم بسيط، وهو الذي يتكون من أحد تلك العناصر، كالذهب والنحاس والحديد، وجسم مركب من عنصرين أو أكثر، كالماء المركب من ذرة أوكسجين وذرة هييدروجين.

وفيما يخص الفكرة الثانية، برهنت الفيزياء على صحة النظرية الانفصالية، وأن العناصر مولفة من ذرات دقيقة جداً إلى حد أن المليمتر الواحد من المادة يحتوي ملايين من الذرات، والذرة هي الجزء الأدق من العنصر، وبناقصها تزول خصائص ذلك العنصر.

تحتوي الذرة نواةً مركبة، وكهارب تدور حول النواة بسرعة هائلة، وهذه الكهارب هي الأكترونات، والالكترون هو وحدة الشحنة السالبة، وتحتوي النواة بروتونات ونيوترونات، والبروتون يحمل شحنة موجبة تساوي شحنة الألكترون السالبة، أما النيوترون فإنه لا يحمل أية شحنة كهربائية.

وقد ثبت علمياً إمكان تبديل العناصر بعضها، إما بصورة طبيعية، أو بالوسائل العلمية، فقد لوحظ: أن عنصر اليورانيوم يولد ثلاثة أنواع من الأشعة، هي: أشعة ألفا وبيتا وجاما، ويتحول اليورانيوم بسبب ذلك إلى عنصر آخر هو الراديوم، الذي يكون وزنه الذري أخف من اليورانيوم، وهو أيضاً يمر بتحولات عديدة حتى يتهمي إلى عنصر الرصاص.

▣ تحويل المادة إلى طاقة

ولم يقف العلم عند هذا الحد، بل حاول تبديل المادة إلى طاقة، أي:

نزع الصفة المادية للعنصر بصورة نهائية، وتمكن العلماء من تحويل المادة الى طاقة، والطاقة الى مادة، وليس التفجير الناتج من القنبلة الذرية والهيدروجينية الا بسبب تحول جزء من المادة الى طاقة هائلة.

وبذلك ثبت علمياً أن الذرة بما فيها من بروتونات والكترونات ونيوترونات، ليست في الحقيقة الا طاقة متراكفة، يمكن تحليلها وارجاعها الى حالتها الأولى، فهذه الطاقة هي أصل العالم، وهي التي تظهر في أشكال مختلفة وصور متعددة: صوتية ومتناطيسية وكهربائية وكيمياوية، الى آخره.

■ المادة صفة عَرَضِيَّة

ونستنتج من الحقائق العلمية المتقدمة ما يلي :
أولاً: أن هناك حقيقة واحدة مشتركة بين جميع كائنات العالم، وهذه الحقيقة تظهر بأشكال مختلفة.

ثانياً: أن خواص المركبات المادية كلها عَرَضِيَّة، فخاصية السيلان ليست ذاتية للماء، بل صفة عَرَضِيَّة؛ لأن الماء مركب من عنصري الاوكسجين والهيدروجين، ويمكن فصل هذين العنصرين عن بعضهما، فيرجعان الى حالتهما الغازية، وتزول بذلك صفة الماء تماماً،

ومن الواضح: أن الصفات التي يمكن أن تزول عن الشيء لا تكون ذاتية له.

ثالثاً: أن خواص العناصر ليست ذاتية لها أيضاً؛ لإمكان تحول بعض العناصر إلى بعض، طبيعياً أو صناعياً، فليست صفة الرصاص والأوكسجين والنحاس مثلاً ذاتية للمواد التي تتكون منها؛ لإمكان تبديلها بعناصر أخرى.

رابعاً: أن الصفة المادية نفسها صفة عَرَضِية؛ لأنها شكل من أشكال الطاقة، وهو ليس ذاتياً لها؛ إذ قد تستبدل به شكل آخر، فتحوّل المادة إلى طاقة.

■ المادة ليست هي العلة الفاعلية لهذا العالم

ومما تقدم نعلم: أن المادة لا يمكن أن تكون هي (العلة الفاعلية) والسبب الأعلى للعالم: لأن المادة الأصلية حقيقة واحدة عامة في جميع الموجودات، ولا يمكن للحقيقة الواحدة أن تختلف آثارها وتتباين أفعالها؛ لأن هذا يقضي على جميع العلوم الطبيعية؛ لأنها تقوم على أساس أن الحقيقة الواحدة لها قوانين محددة ثابتة، وقد علمنا أن التجربة لا تقع إلا على موارد خاصة، ومع ذلك يستنتج منها قانون عام يشمل كل

ما تتفق حقيقته مع موضوع التجربة؛ استناداً إلى أن الحقيقة الواحدة لا يمكن أن تناقض أحکامها وتختلف آثارها.

وبهذا نعلم: أن الواقع المادي المشترك للعالم لا يمكن أن يكون هو العلة الفاعلية له؛ لأن العالم مليء بالظواهر والأثار المختلفة التي يستحيل صدورها من حقيقة واحدة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، وجدنا أن الخصائص التي تبدو بها المادة في مختلف مجالات وجودها، هي خصائص غَرَضية للمادة الأصلية، وليس ذاتية لها، فخصائص المركبات خصائص غَرَضية للعناصر، وخصائص العناصر البسيطة صفات غَرَضية للذرات، والصفة المادية نفسها صفة غَرَضية أيضاً، بدليل إمكان سلب كل واحدة من هذه الصفات، وتجريد الواقع المشترك منها.

وعليه، لا يمكن أن تكون المادة سبباً ذاتياً لاكتساب تلك الخصائص والصفات، بل لا بد من نشوئها من عوامل خارج المحتوى الذاتي للمادة، وهذه العوامل تتسلسل حتى تصل في نهاية المطاف إلى مبدأ وراء المادة، لا إلى المادة ذاتها.

▣ الخلاصة

- المادة الأصلية التي يتكون منها العالم حقيقة واحدة مشتركة بين جميع كائناته، وأشكالها المختلفة هي صفات عارضة عليها، وليست ذاتية لها.
- القول بأن المادة هي السبب الأعلى للوجود، يلزم منه القول بتناقض الحقيقة الواحدة في ظواهرها وأثارها، ويستلزم القضاء على جميع القوانين العلمية.
- اختلاف آثار المادة وظواهرها لا يكمن في المادة ذاتها، بل في سبب وراء المادة، تنتهي إليه العوامل التي تمنع المادة صفاتها وخصائصها المتنوعة.

▣ أسئلة

- ١- ميّز بين العلة المادية والعلة الحقيقة للكرسى.
- ٢- في المادة فكرتا علميتان طرحوهما العلماء قديماً، بين هاتين الفكرتين.
- ٣- وضّح المراد بالنظرية الانفصالية لديمقرطيس والنظرية الاتصالية لأرسطو.

- ٤- قسمت الفيزياء الحديثة الأجسام الى قسمين: جسم بسيط ، وجسم مركب، عرَف بكلِّ من هذين القسمين.
- ٥- ما هي الحقيقة التي ثبتت علمياً بسبب تفجير الذرة.
- ٦- كيف ثبت أن خاصية السيلان صفة عارضة على الماء، وليس ذاتية له؟
- ٧- ما الدليل على أن الواقع المادي المشترك للعالم لا يمكن أن يكون هو العلة الفاعلية له؟

البحث السابع عشر

المادة العلمية والمادة الفلسفية

■ تعريف المادة العلمية والفلسفية

اتضح في البحث المتقدم: أن المادة بمفهومها العلمي لا يمكن أن تكون هي العلة الفاعلية للوجود، وسنوضح في هذا البحث أن المادة بمفهومها الفلسفي لا تصلح أيضاً لأن تكون هي السبب الأعمق لهذا الكون.

إن مادة الشيء هي: الأصل الذي يتكون منه ذلك الشيء، فمادة السرير هي الخشب، ومادة الثوب هي الصوف، ومادة الورق هي القطن. ونحن كثيراً ما نعيّن مادة للشيء، ثم نرجع إلى تلك المادة فنحاول معرفة مادتها والأصل الذي تتكون منه، ثم نأخذ هذا الأصل فنبحث عن

مادة وأصله أيضاً، وهكذا، ولابد أن يتنهي هذا التسلسل الى مادة أساسية لا يمكن أن تتوضع لها مادة.

وقد طرح العلماء وال فلاسفة سؤالاً عن المادة الأصلية للعالم، التي ينتهي إليها تحليل الأشياء، وهو سؤال من أهم الأسئلة في المجالين العلمي والفلسفى.

ويقصد بالمادة العلمية أعمق ما تكشفه التجربة من مادة للعالم، ويقصد بالمادة الفلسفية أعمق مادة للعالم، سواء أكان من الممكن ظهورها في المجال التجريبي أم لا.

إن أعمق مادة توصل إليها العلم هي الذرة، التي هي تكافئ خاص للطاقة، ففي مجال العلم، مادة الكرسي هي الخشب، ومادة الخشب هي العناصر البسيطة التي يتتألف منها، وهي: الأوكسجين والهيدروجين والكاربون، ومادة هذه العناصر هي الذرات، ومادة الذرة هي أجزاؤها الخاصة من البروتونات والالكترونات والنيوترونات، وهذه المجموعة الذرية أو الشحنات الكهربائية المتكافئة هي المادة العلمية العميقية التي أثبتتها العلم بالوسائل التجريبية.

وهنا تأتي مرحلة البحث الفلسفى، فنحاول أن نعرف: هل أن الذرة هي أعمق وأبسط مادة للعالم، أم أنها مركبة أيضاً؟

■ المادة الفلسفية أعمق من المادة العلمية

الرأي الفلسفي السائد هو: أن المادة الفلسفية أعمق من المادة العلمية، أي: أن المادة الأولى في التجارب العلمية، ليست هي المادة الأساسية في النظر الفلسفي، بل إنها مركبة أيضاً من مادة ومن صورة، فكما أن الكرسي مركب من مادة هي الخشب، ومن صورة هي هيئته الخاصة، والماء مركب من مادة هي ذرات الأوكسجين والهيدروجين، ومن صورة هي خاصية السيلان، كذلك الذرة مركبة من مادة أبسط منها ومن صورة، وتلك المادة الأبسط لا يمكن إثباتها بالتجربة، بل يبرهن على وجودها بطريقة فلسفية.

■ النظرية الذرية: جانبها العلمي وجانبها الفلسفي

وبهذا نعلم: أن النظرية الذرية لديمقريطس القائلة: إن أصل العالم هو ذرات لا تتجزأ، لها جانبان: أحدهما علمي، ومفاده: أن الأجسام مركبة من ذرات صغيرة يتخللها فراغ، والأخر فلسفى، وهو: ما زعمه ديمقريطس من أن تلك الذرات ليست مركبة؛ إذ ليس هناك مادة أبسط منها، فهي المادة الفلسفية، أي أعمق وأبسط مادة للعالم.

وقد أثبتت التجارب العلمية الحديثة صحة الجانب العلمي من

نظريّة ديمقريطس، وان الجسم مركب من ذرّات يتخلّلها الفراغ، ولن يكفي أن نقول إنّه مادّة، وأما الجانب الفلسفـي فلم تبرهن الكشوف العلمـية على صحتـه، بل تبقى مسألـة وجود مادـة أبـسط من المادـة العلمـية في عهـدة البحـث الفلـسفـي؛ إذ يمكنـه أخذـ أعمـق مادـة توصلـ إليها العـلم في المـيدان التجـريـبيـيـ، ليـبرـهنـ علىـ أنهاـ مـركـبةـ منـ مـادـةـ أـبـسطـ وـمـنـ صـورـةـ، وـلـاـ يـتـنـافـيـ ذـلـكـ معـ الحـقـائقـ الـعـلـمـيـةـ؛ لأنـ هـذـاـ التـحلـيلـ الفلـسفـيـ لـيـسـ مـمـكـنـ أـنـ يـظـهـرـ فيـ الـحـقـلـ التجـريـبيـ.

□ توضيح المفهوم الفلسفـيـ للمـادـةـ

ولأجلـ إـيـضـاحـ المـفـهـومـ الـفـلـسـفـيـ لـلـمـادـةـ، نـبـدـأـ أـوـلـاـ بـالـتمـثـيلـ بـالـمـاءـ والـكـرـسيـ، لـنـعـرـفـ كـيـفـ أـثـبـتـ الـفـلـسـفـةـ أـنـهـمـاـ مـرـكـبـانـ مـادـةـ وـصـورـةــ. إنـ المـاءـ يـتـمـثـلـ فـيـ مـادـةـ سـائـلةـ، وـهـوـ فـيـ الـوقـتـ نـفـسـهـ قـابـلـ لـأـنـ يـكـونـ غـازــ، وـمـرـكـزـ هـذـهـ الـقـابـلـيـةـ لـيـسـ هـوـ السـيـلانـ؛ لأنـ صـفـةـ السـيـلانـ لـاـ يـمـكـنـ أـنـ تكونـ غـازــ، بلـ مـرـكـزـ هـاـ مـادـةـ المـاءـ، فـهـوـ إـذـنـ مـرـكـبـ مـادـةـ السـيـلانـ، وـمـنـ مـادـةـ تـتـصـفـ بـتـلـكـ الـحـالـةـ، وـهـيـ قـابـلـ لـلـاتـصـافـ بـالـغـازـيـةـ أـيـضاــ.

والـكـرـسيـ يـتـمـثـلـ فـيـ مـادـةـ هـيـ الخـشـبـ، وـمـنـ هـيـئـةـ خـاصـةــ. وـهـوـ قـابـلـ لـأـنـ يـكـونـ مـنـضـدـةــ، وـلـيـسـ هـيـئـتـهـ هـيـ القـابـلـةـ لـذـلـكــ، بلـ مـادـتـهـ، وـمـنـ هـذـاـ

نعلم: أنَّ الكرسي مركب من هيئة خاصة، ومن مادة تصلح لأن تكون منضدة، كما صلحت لأن تكون كرسيًا.

وهكذا في كل مجال اذا لوحظ أن الكائن قابل للاتصال بتفاوض صفتة الخاصة، يثبت فلسفياً أن له مادة، وهي التي تقبل الاتصال بتفاوض تلك الصفة.

ولندرس الذرة في هذا الضوء أيضاً، وقد عرفنا أن العلم يوضح: أن الذرات هي الوحدات الأخيرة في التحليل العلمي، وأنها ليست مركبة من وحدات أصغر منها، والألم تكن الوحدات النهائية للمادة.

ولكن الفلسفة تأتي الى تلك الوحدات النهائية التي عينها العلم للمادة لتشتت أنها مركبة من صورة ومادة أبسط منها؛ ذلك لأننا لا نتصور وحدة مادية من دون اتصال؛ إذ لو لا الاتصال الحقيقي، ل كانت محتوية على فراغ تخلله أجزاء، فمعنى الوحدة هو: أن تكون متصلة، ولكنها في الوقت نفسه قابلة أيضاً للتجزئة والانفصال، ومن الواضح: أن ما يقبل الانفصال ليس هو الاتصالية المقومة للوحدة المادية؛ لأن الاتصال لا يمكن أن يتصرف بالانفصال، كما أن السيرولة لا يمكن أن تتصرف بالغازية، فلا بد أن تكون للوحدة مادة بسيطة هي التي تقبل التجزئة والانفصال، فهي مركبة من مادة وصورة، فالمادة هي القابلة للاتصال المحقق

للوحدة، وللانقسام الهادم لها، وأما الصورة فهي نفس هذه الاتصالية التي لا يمكن تصور وحدة مادية من دونها.

قد يقال: كيف يمكن للفلسفة معرفة أن الوحدات الأساسية في المادة قابلة للانقسام، مع أن التجارب العلمية لم تثبت ذلك؟

والجواب: إن الفلسفة لا تدعي أن تجزئة الوحدة أمر ميسور بالأجهزة والوسائل العلمية؛ فان هذه الدعوى من حق العلم وحده، وإنما تبرهن الفلسفة على أن كل وحدة قابلة للانقسام، وإن لم يمكن تحقيق هذا الانقسام خارجاً بالوسائل العلمية، ولا يمكن أن نتصور وحدة من دون قابلية للانقسام.

■ المادة ليست هي المبدأ الأول

وبعد اتضاح المفهوم الفلسفي للمادة القائل بـ تكونها من مادة وصورة، نعرف: أن المادة لا يمكن أن تكون هي المبدأ الأول للعالم؛ لأنها بنفسها مركبة من مادة وصورة، ولا يمكن لـ كل من المادة والصورة أن يوجد مستقلاً عن الآخر، فلابد من وجود فاعل أسبق لعملية التركيب التي تحقق للوحدة المادية وجودها.

وبتعبير آخر: أن المبدأ الأول هو الحلقة الأولى من سلسلة الوجود،

وهو العلة الغنية في وجودها وكيانها عن أي شيء آخر، والوحدات الأساسية في المادة ليست غنية في وجودها عن فاعل خارج ذاتها؛ لأن كيانها يتتألف من مادة وصورة، فهي بحاجة اليهما معاً، كما أن كلاً من المادة والصورة أيضاً بحاجة إلى الآخر في وجوده، ويترتب من ذلك كله: أن المبدأ الأول للوجود خارج عن حدود المادة، وأن المادة الفلسفية للعالم، القابلة للاتصال والانفصال، بحاجة إلى سبب خارج عنها يحدد وجودها الاتصالي أو الانفصالي.

▣ الخلاصة

- مادة الشيء هي: الأصل الذي يتكون منه ذلك الشيء، وصورته هي: هيئته الخاصة، ولا يمكن لكل من المادة والصورة أن توجد مستقلة عن الأخرى.
- الوحدات الأساسية للمادة التي كشف عنها العلم، لا يمكن أن تكون هي المبدأ الأول للوجود؛ لأنها مركبة من مادة وصورة، وهي بحاجة اليهما معاً لكي توجد، والمبدأ الأول لابد أن يكون غنياً في وجوده عن أي شيء آخر.

❑ أسئلة

- ١- ما هو المقصود بكلّ من المادة العلميّة والمادة الفلسفية؟
- ٢- ما هي أعمق مادة أثبتها العلم بوسائله التجاريبيّة؟
- ٣- النظريّة الذريّة لديمقرطس لها جانبان: علمي وفلسي، بين المراد بكلّ منهما.
- ٤- هل يمكن إثبات الجانب الفلسي من نظرية ديمقرطس بالتجارب العلميّة؟ علل لإجابتك.
- ٥- ما الذي تستفيده فلسيّاً من ملاحظة قابلية الكائن للاتصال بنقيض صفتة الخاصّة؟
- ٦- كيف يمكن للفلسفة معرفة أن الوحدات الأساسيّة في المادة قابلة للانفصال، مع أن التجارب العلميّة لم تثبت ذلك؟
- ٧- هل يمكن لكلّ من المادة والصورة أن توجد مستقلة عن الأخرى؟
- ٨- ما الذي نعرفه بعد اتضاح المفهوم الفلسي للمادة القائل بتكونها من مادة وصورة؟

البحث الثامن عشر

الدليل الفلسفى على وجود الله تعالى

■ تعريف الدليل الفلسفى

الدليل الفلسفى هو: الدليل الذى يعتمد لإثبات واقع موضوعى على معلومات عقلية (وهي المعلومات التى لا تحتاج الى إحساس وتجربة)، إضافة الى مبدأ عدم التناقض القائل: إن (أ)، هي (أ)، ولا يمكن أن لا تكون (أ).

وهذا لا يعني بالضرورة: أن الدليل الفلسفى لا يعتمد على معلومات حسية أو تجريبية، بل يعني: أنه لا يكتفى بها، بل يعتمد مضافاً اليها أو بصورة مستقلة عنها، على معلومات عقلية للاستدلال على القضية التي يريده إثباتها.

وقد يقال: هل يمكن الاعتماد على المعلومات العقلية دون حاجة الى الاحساس والتجربة؟

والجواب عن ذلك بالايجاب؛ لأن في معلوماتنا ما يحضرني بشقة الجميع كمبدأ عدم التناقض الذي تقوم عليه كل الرياضيات البحتة، وهو مبدأ نؤمن به على أساس عقلي، لا على أساس المشاهدات والتجارب، والدليل على ذلك: أن درجة اعتقادنا بهذا المبدأ لا تتأثر بعدد التجارب والشاهدات التي تتطابق معه.

فإذا كنّا نثق كل الثقة بهذه الحقيقة مع عدم ارتباطها بالاحساس والتجربة، فمن الطبيعي أن نسلم بامكان الثقة أحياناً بالمعلومات العقلية التي يعتمد عليها الدليل الفلسفى.

□ القضايا التي يعتمد عليها الدليل الفلسفى

يعتمد الدليل الفلسفى الذي نقدمه هنا على وجود الله تعالى، على القضايا الثلاث الآتية:

الأولى: القضية البديهية القائلة: كل حادثة لها سبب تستمد منه وجودها، وهي قضية يدركها الإنسان بشعوره الفطري، وتوكدها المشاهدات العلمية.

الثانية: القضية القائلة: كلما وجدت درجات متفاوتة من شيء ما، بعضها أقوى وأكمل من بعض، فليس بالإمكان أن تكون الدرجة الأقل كمالاً سبباً في وجود الدرجة الأعلى، فالحرارة والمعرفة مثلاً، لهما درجات بعضها أشد من بعض، ولا يمكن أن تنبثق درجة عالية من الحرارة عن درجة أدنى منها، ولا يمكن أن يكتسب الإنسان معرفة كاملة باللغة الانجليزية مثلاً من شخص لا يعرف منها إلا قدرًا محدودًا، أو يجهلها تماماً.

الثالثة: أن المادة في تطورها المستمر تتخذ أشكالاً مختلفة، فالجزيء من المادة الذي لا حياة فيه ولا إحساس، يمثل شكلاً من أشكال الوجود للمادة، ونطفة الحياة التي تساهم في تكوين النبات والحيوان، تمثل شكلاً أرفع لوجود المادة، والأمبياء، وهي حيوان مجهرى ذو خلية واحدة، تمثل شكلاً من وجود المادة أكثر تطوراً، والانسان هذا الكائن الحي الحساس المفكر، هو الشكل الأرقى من أشكال الوجود في هذا الكون.

▣ الفارق الكيفي بين أشكال الوجود

وهنا يطرح السؤال التالي: هل الفارق بين هذه الأشكال الوجودية

المختلفة مجرد فارق كمّي في عدد الجزيئات المكونة لها، أم هو فارق نوعي وكيفي يعبر عن درجات متفاوتة من الوجود. ومرأحل من التكامل؟ وبتعبير آخر: هل الفارق بين التراب والإنسان الذي تكون منه، عددي فقط، أم هو فارق بين درجتين من الوجود، ومرحلتين من التطور والتكامل؟

لقد أدرك الإنسان بفطنته أن هذه الأشكال درجات من الوجود، فالحياة درجة أعلى من الوجود للمادة، وحياة الكائن الحساس المفكر أعلى درجة من حياة النبات.

غير أن المفكرين الماديين قبل أكثر من قرن خالفوا في ذلك، وطرحوا نظرية في تفسير الكون تقول: إن العالم الخارجي يتكون من جسيمات صغيرة متماثلة، تؤثر فيها قوى بسيطة جاذبة وطاردة، وبهذا الجذب والطرد تتجمع أجزاء وتتفرق أجزاء، وتتنوع أشكال المادة، دون أن يحدث بسبب ذلك شيء جديد، فالمادة لا تنمو في وجودها ولا تترقى، بل تتشكل وتتوزع بطريق مختلفة، كالعجبينة حين نشكّلها بأشكال مختلفة، وتظل دائماً هي العجبينة نفسها دون جديد.

إلا أن استمرار تطور العلم، أبطل هذه النظرية، وأثبتت ما أدركه الإنسان بفطنته من أن تنوع أشكال المادة لا يعود إلى مجرد نقلات

مكانية، وإنما هو لون من التطور النوعي والكيفي، وأننا نواجه في الحياة والاحساس والفكر، عملية نمو حقيقة في المادة، وتطوراً نوعياً في درجات وجودها، سواء أكان سبب هذا التطور النوعي شيئاً مادياً من درجة أعلى، أم شيئاً غير مادي.

قلنا: إن الدليل الفلسفى الذى نقدمه لإثبات وجود الله تعالى، يعتمد على ثلاث قضايا، وهى :

١- كل حادثة لها سبب.

٢- الأدنى لا يكون سبباً لما هو أعلى درجة منه.

٣- اختلاف درجات الوجود وتتنوع أشكاله كيفياً، الذى يحتم وجود سبب لهذا التنوع سواء كان هذا السبب مادياً، أم غير مادي.
إننا نواجه في الأشكال النوعية المتطرفة للوجود نمواً حقيقياً، وتكاملاً في وجود المادة، وزيادة نوعية فيه، وهنا يطرح السؤال التالي:
من أين جاءت هذه الزيادة ، مadam لكل حادثة سبب كما تقدم؟

■ علة الزيادة النوعية في وجود المادة

وهناك إجابتان عن هذا السؤال :

أولاًهما - أنها جاءت من المادة نفسها، فالمادة بسبب تطورها أبدعت

الحياة والإحساس والتفكير.

وهذه الإجابة تتعارض مع القضية الثانية التي تقرر: أن الأدنى درجة، لا يمكن أن يكون سبباً لما هو أكبر منه درجة وأغنى محتوى من أشكال الوجود، فافتراض أن المادة الميتة التي لا تنبع بالحياة، تمنح لنفسها أو لمادة أخرى الحياة والإحساس والتفكير، يشابه افتراض أن الإنسان الذي يجهل اللغة الانجليزية يمارس تدریسها، وأن الفقير الذي لا يملك شيئاً يمول المشاريع الرأسمالية.

والإجابة الثانية - ان هذه الزيادة الجديدة التي تعبر عنها المادة عبر تطورها، جاءت من مصدر يتمتع بكل ما تحتويه تلك الزيادة من حياة وإحساس وفكـر، وهو الله سبحانه وتعالـي، وليس نموـ المادة وتطورـها إلاـ تنمية يمارسـها ربـ العالمـين بـحكـمـته وـتدـبـيرـه.

قال تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضفة، فخلقنا المضفة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين»^(١).

(١) المؤمنون / ١٤ - ١٢

وهذه الإجابة هي الوحيدة التي تنسجم مع القضايا الثلاث المتقدمة، وتعطى تفسيراً معقولاً لعملية النمو والتكامل في أشكال الوجود على ساحة هذا الكون الرحيب.

▣ الخلاصة

- الدليل الفلسفى يعتمد أساساً على المعلومات العقلية، وقد يضم إليها معلومات حسية وتجريبية.
- الفارق بين الأشكال المختلفة للوجود هو فارق نوعي كيفي، وليس مجرد فارق كمي عددي.
- إن الحياة والاحساس والفكر، لا بد لها من مصدر وراء المادة، هو الله سبحانه؛ لأن المادة الفاقدة للحياة والاحساس والفكر، لا يمكن ان تكون سبباً في وجودها.

▣ استئناف

- ١ - عرّف بالدليل الفلسفى.
- ٢ - هل يمكن في مجال إثبات واقع موضوعي الاعتماد على المعلومات العقلية، دون حاجة الى الاحساس والتجربة؟ علل

لا جابتلك.

٣- لا يمكن أن تكون الدرجة الأقل كمالاً سبباً في وجود الدرجة الأعلى، وَضَعْ هذه القضية بالتمثيل.

٤- ادعى أن المادة لا تنمو في وجودها ولا تترقى، وأن الفارق بين أشكال الوجود المختلفة فارق كمي، وليس نوعياً وكيفياً، بين ما أثبتته تطور العلم، وما ادركه الإنسان بفطنته، بشأن هذه الدعوى.

٥- ما هي القضايا الثلاث التي يعتمد她的 الدليل الفلسفـي لإثبات وجود الله سبحانه؟

٦- قيل: إن الأشكال النوعية المتطرفة للوجود، مسببة عن المادة نفسها، فالمادة بسبب تطورها أبدعت الحياة والاحساس والتفكير، اذكر الدليل على خطأ هذا القول.

٧- ما هي الاجابة الصحيحة عن سبب التكامل في وجود المادة والزيادة النوعية والكيفية التي تحصل فيها؟



المحتويات

الصفحة	الموضوع
٦-٥	■ المقدمة ■ المقدمة
١٧-٧	■ البحث الأول: المعرفة، حقيقتها ومصدرها تعريف الادراك: المصدر الأساسي للمعرفة أولاً - نظرية الاستذكار الأفلاطونية ثانياً - النظرية الحسية ثالثاً - نظرية الأفكار الفطرية رابعاً: نظرية الانتزاع الخلاصة - أسئلة
٣١-١٨	■ البحث الثاني: كيف تميّز الحقيقة من الخطأ؟ المذهب العقلي

الصفحة	الموضوع
	تعريف المعلومات البدئية والمعلومات النظرية
	علاقة البيئة بين المعلومات
٢٤	المذهب التجريبي
	التجربة ليست مقياساً أساسياً لاختبار صحة المعلومات
	الخلاصة - أسئلة
٤٢-٣٢	■ البحث الثالث: مبدأ العلية
	التعرّيف بمبدأ العلية
	تفسير العلية بتصورين متعارضين
	مناقشة دليل المنكرين لمبدأ العلية
	الخلاصة - أسئلة
٤٣-٥١	■ البحث الرابع: التجربة واليقين الرياضي
	الاتجاه العقلي والاتجاه التجريبي
	الخلاصة - أسئلة
٥٢-٥٧	■ البحث الخامس: المدرسة الوضعية والفلسفة
	ما هي القضية ذات المعنى؟
	تعريف الوضعيين للقضية ذات المعنى

الصفحة	الموضوع
	نقد الموقف الوضعي من القضية ذات المعنى
	عدم ارتباط صدق القضية وكذبها بالتجربة
	الخلاصة - أسئلة
٦٤-٥٨	■ البحث السادس: حقيقة الإدراك
	رأيان في حقيقة الإدراك
	الصورة الذهنية: خصائصها الهندسية، وثباتها
	الصورة المدركة صورة لا مادية
	معنى ثبات الصورة المدركة
	الإدراك والجانب اللامادي من الإنسان
	الخلاصة - أسئلة
٧٦-٦٥	■ البحث السابع: تطور المعرفة
	معنى تطور المعرفة
	مناقشة أدلة المفهوم الماركسي لتطور المعرفة
	فكرة عن سير التطور العلمي
	الخلاصة - أسئلة
٨٣-٧٧	■ البحث الثامن: الوجود الخارجي والوجود الذهني

الصفحة**الموضوع**

الفرق بين الوجود الخارجي والذهني

وجود العالم ككل، وجود الأشياء الجزئية

مناقشة أدلة المثاليين على نفي الوجود الخارجي

الخلاصة - أسلنة

■ البحث التاسع: حقيقة الوجود الخارجي ٩٠-٩٤

خطأ المفهوم المادي

كشف الفيزياء، والواقع الخارجي

الواقعية: إلهيّة وماديّة

د الواقع الاتجاه نحو المثالية

الخلاصة - أسلنة

■ البحث العاشر: مبدأ العالم ٩٨-٩١

المفاهيم الفلسفية عن حقيقة العالم

المفهوم الإلهي ومبدأ السبيبة

المفهوم الإلهي والمادي في ثلات نقاط

الخلاصة - أسلنة

■ البحث الحادى عشر: حقيقة الحركة ١٠٥-٩٩

الصفحة	الموضوع
	المفهوم الصحيح للحركة
	مثالان للحركة
	نقد المفهوم الذي يكتبه للحركة
	الحركة لا بد لها من سبب
	الخلاصة - أسئلة
■ البحث الثاني عشر: بطلان القول بالتناقض ١١٤-١٠٦	الطبيعة البشرية ترفض التناقض
	شروط تحقق التناقض
	التناقض والصراع بين الأضداد الخارجية
	أدلة القول بالتناقض ومناقشتها
	الخلاصة - أسئلة
■ البحث الثالث عشر: كيفية التطور ١٢٢-١١٥	دفعية التطور وهذا السياسي
	القفزة ليست حتمية للتطور الكيفي
	ثلاث ملاحظات
	الخلاصة - أسئلة

الصفحة	الموضوع
☐ البحث الرابع عشر: ترابط أجزاء الوجود ١٢٣-١٣١ ترابط الموجودات ومبدأ العلية نقطتان مهمتان استدلال الماركسيين بالكشف الحديثة الكشف الحديثة تؤيد رأي الفلاسفة الالهيين التعارض بين نظرية داروين والتفكير الماركي الخلاصة - أسئلة	
☐ البحث الخامس عشر: مبدأ العلية ١٣٢-١٣٩ خصائص مبدأ العلية المسألة الأولى: لماذا تحتاج الأشياء إلى علة؟ المسألة الثانية: قانون التعاصر بين العلة والمعلول المسألة الثالثة: قانون النهاية الخلاصة - أسئلة	
☐ البحث السادس عشر: العلة المادية والعلة الفاعلية ١٤٠-١٤٨ مادة العالم وفاعلها الحقيقي المادة الأصلية للعالم: العناصر أم الذرات؟	

الصفحة

الموضوع

مادة العالم الأصلية والفيزياء الحديثة

تحويل المادة إلى طاقة

المادة صفة عَرَضِيَّة

المادة ليست هي العلة الفاعلية لهذا العالم

الخلاصة - أسئلة

■ البحث السابع عشر: المادة العلمية والمادة الفلسفية ١٤٩-١٥٦

تعريف المادة العلمية والفلسفية

المادة الفلسفية أعمق من المادة العلمية

النظرية الذرية: جانبها العلمي وجانبها الفلسفي

توضيح المفهوم الفلسفي للمادة

المادة ليست هي المبدأ الأول

الخلاصة - أسئلة

■ البحث الثامن عشر: الدليل الفلسفي على وجود الله تعالى ١٥٧-١٦٤

■ تعريف الدليل الفلسفي

■ القضايا التي يعتمد عليها الدليل الفلسفي

■ الفارق الكيفي بين أشكال الوجود